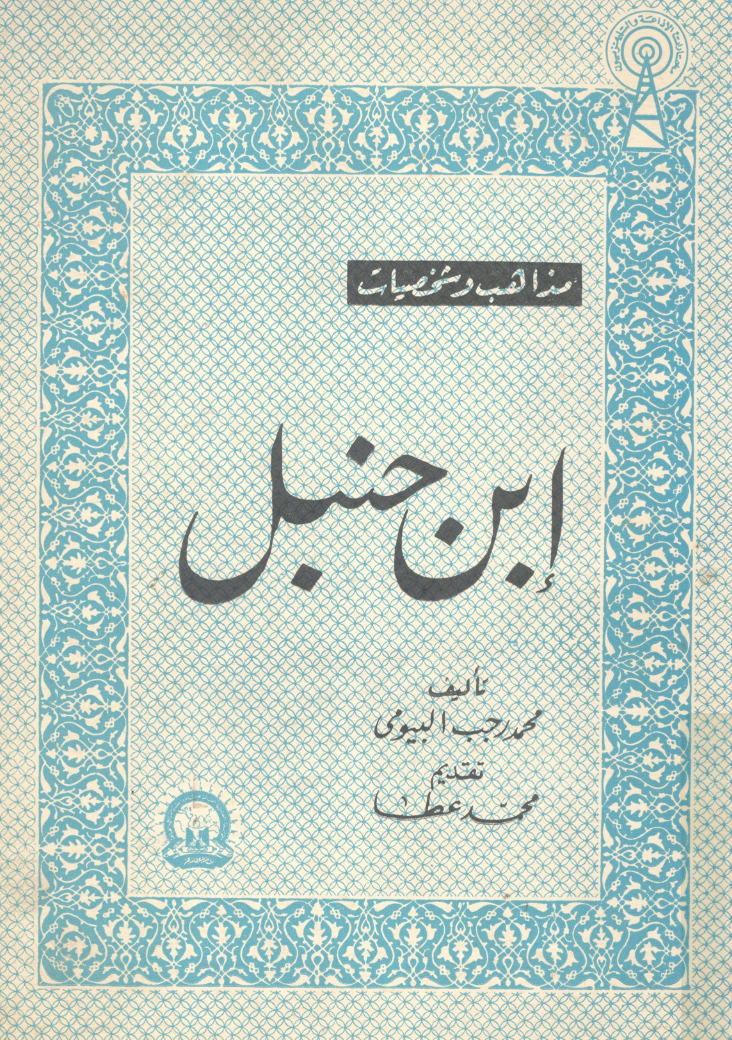

مذاهب وشخصيات
ابن حنبل
تأليف
محمد رجب البيومي
تقديم
محمد عطا

مذاهب وشخصيات



تأليف : محمد رجب البيومي
تقديم : محمد عطا

تقديم

لم أجد شخصية من الشخصيات الاسلامية اتسمت بالشجاعة والثبات على المبدأ كشخصية أحمد بن حنبل ، فهو نموذج فريد وجبهة من الحياة العالمية التى تعتز بها وتفخر ، فلم يحفل بالتعذيب والاضطهاد فى سبيل فكرته التى اختمرت فى ذهنه وجاهر بها .

لقد كان مثالا للورع والزهد يتعفف عن عطايا الخلفاء حتى لا يستذلوه أو يؤثروا عليه أدنى تأثير على حين أن غيره فى عصره كان يتلهف عليها بل يسعى اليها .

وكان عالما متجردا وهب نفسه للعلم ، وقد أعانه على ذلك عدم تعلقه بالدنيا وانصرافه عنها وحافظة نادرة وذاكرة قوية فقد كان يحفظ آلاف الاحاديث ، وتحرج يبلغ الى حد الوسوسة وهذا منتهى الأمانة العلمية فاذا سئل عن حديث لم يشأ أن يرويه من ذاكرته بل يرجع الى كراساته المدونة حتى لايدع كلمة أو يغير لفظا وانه لكلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ينبغى ألا يروى بمعناه .

وأعانه أيضا حبه للخلوة ، وانطواؤه على نفسه حيث يكون التفكير المجرد والتأميل العميق وحيث تتفتح للعالم آفاق واسعة من المعرفة ، وحلول لعسير المشكلات العلمية .

وابن حنبل ثقافته عربية خالصة ، نابعة من كتاب الله ، وأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وماروى عن الصحابة والتابعين ، وتأثر من غير شك بمعاصرة الامام الشافعى كما ذكر المؤلف .

ولعله من بين الأئمة الذين يتمسكون بحرفية النص ، ولا يكادون يبعدون فى التخريج والتفسير والجدل .

وابن حنبل كتب عنه الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة مؤلفه ضخما ، ولكن مثل ابن حنبل فى حاجة الى أن يعكف عليه كتاب وكتاب ممن تمرسوا بالدراسة الاسلامية ، وتعمقوا روح الفقه والتشريع على أن هذا البحث يمتاز بالأسلوب الأدبى العلمى أى الذى يجمع بين المادة العلمية والصورة الادبية مما جعله محببا الى النفس .

ولأترك القارىء ليعيش مع شخصية من الشخصيات الاسلامية الفذة ، المتعددة الجوانب ، المشرقة فى تاريخنا .

محمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أكتب هذه الصفحات المتواضعة عن أحمد بن حنبل لأكثر من سبب .

فالرجل مجاهد مثابر تعرض لأقسى ضروب المحن ، وتحمل أشق مرهقات البلاء ، فكان الشجاع القوى المكين ..

والرجل عالم فقيه له مذهبه المعتمد وتلاميذه العظام ، وقد ترك فى المجتمع الاسلامى لعهده دويا يجلجل وصدى يرن ومازال تأثيره النفاذ يسير من قرن الى قرن فى دنيا التشريع والقانون فيهدى الى طريق أمثل ويشير الى خطة مجتباه ..

والرجل علم خافق فى موكب الأخلاق النبيلة فقد احتقر شهوات النفوس وارتفع بغرائز البشر الى مقام وضىء ترفرف فيه أجنحة الكرامة والعزة ، حتى صارت حياته كتابا فى السلوك الانسانى يقرؤه من يريد لنفسه شرف الحياة ومجد الأبد وسعادة الآخرة .. وان رجلا كبيرا له هذه الصفات لجدير أن تقدم حياته فى كتاب ..

ولن نزعم أننا نكتب حياة الرجل مبتدئين .. فقد كتب عنه الكثير من المؤلفات فى القديم والحديث ولكننا نسلك فى الحديث عن الرجل مسلكا تتميز به وتنفرد ، فنحن نحاول أن نجعل من حياته قصة واقعية تنبض بالحركة وتجيش بالقوة . وعمل كهذا لا بد أن يصطدم بعقبات شائكة تعترض سبيل القول وتقطع تيار التدفق والتشويق فهناك حقائق علمية دقيقة يزعجها كثيرا أن يكتنفها التصوير

الأدبي بظلاله وأضوائه ، ولئن جازت القصة الفنية فى حياة بطل حربى أو زعيم سياسى ، أو شاعر عاطفى فانها فى حياة عالم محدث له مذهبه التشريعى ومنهجه الفقهى قد تكون مدعاة السطحية والضحولة ولكننا حاولنا جهد المستطاع أن نحفظ للبحث العلمى حرمته المنهجية فى فصول هامة تدور فى فلكه وتتخايل فى نطاقه دون أن تتخلى عن وضوح العبارة وبلاغة الرد وسلامة البرهان أما أبواب البطولة والنضال فقد استطاع الفن الأدبى أن يمدها بألوانه الحية وهى ألوان هادئة لم نشأ أن نزيد فى توهجها زيادة ترتفع بالواقع الى الخيال ولكننا نجعل منها مصباحا يضىء الطريق الى الحقيقة لتظهر فى نطاقها الواضح وضيئة المعالم مشرقة السمات .

على أنا نكتب هذا الكتاب ، لا ليكون صفحات من التاريخ العلمى والسياسى فحسب بل ليكون مجال عظة بالغة وقدوة مصطفاه، فكتب السلوك الانسانى فى ميدانى التربية والأخلاق لا تستطيع بمفردها أن تنهض برسالتها المجيدة دون أن تتخذ من مواقف العظماء فى سجل التاريخ أمثلة واقعية ملموسة للصبر والكمال والترفع والثبات وما الى ذلك من ضروب الفضائل وصنوف المحامد . فاذا استطاعت كتب التراجم أن تقدم هذه الأمثلة الرائعة لطلاب المعرفة فانها تتيح للانسانية نضوجا كاملا ينهض بها الى أوج السعادة كما تهيىء للاجيال المتعاقبة أن تسلك جادة الفضيلة عن أسوة حميدة واقتداء مجيد .

ونحن فى حديثنا عن الامام لم نشأ أن نغض النظر عما نختلف واياه فى تقدير عن الاعمال والاقوال فلكل انسان منحاه ومشربه ، ولن يكون اختلاف وجهات الرأى موهنا لأواصر المحبة والاعجاب بل ان ذلك أمر طبيعى فى دنيا تختلف فيها المؤثرات والمقومات وهو الدليل الاكيد على أننا لم نقف فى حديثنا التاريخى موقف الدفاع « ولكننا نقف موقف القضاء » فاذا كان للمحامى البارع أن ينتحل الأسباب فليس للقاضى النزيه غير الحيدة والانصاف .

لقد حاول القرن العشرون بما ابتدع من فنون العلم ووسائل

المعرفة أن يشوه بعض الفضائل الانسانية فيردها الى نوازع نفسية ترجع الى حب الذات واشتهاء السيطرة حتى ليكاد بعض دارسى علم النفس أن يرد كل مكرمة فاضلة الى أصل مريض تنسرب أفاعيه فى أطواء النفس حتى كادت أن تشوه معانى الفدائية والتضحية والايثار ولن نجد سلاحا بتارا تقضى به على هؤلاء المفترضين من علماء التحليل والتشريح غير أن نقدم لهم تواريخ صادقة لأناس واقعيين سموا عن نزواتهم فارتفعوا عن رغبات الجسد والنفس أشرف ارتفاع وآنقاه ثم نقول لهؤلاء الدارسين الغلاة أمامكم تلك المثل الخالصة والعبر الخالدة ففيها الدليل الحى على السمو بالغرائز والارتفاع عن الرغبات والمآرب .. فليست اذن دواعى الهبوط والانحدار أمرا محتوما .. ولكنها تجد فناءها العاجل فى التربية الصالحة والنهج القويم ... وحياة كحياة أحمد بن حنبل فى ترفعه وشموخه ، وفى تواضعه وانكساره ، وفى ثباته وصرامته من أقوم الأمثلة المفحمة وأعدل البراهين المنتقاة .

ونحن فى الواقع لا نؤرخ لأحمد وحده ولكننا نكتب عن عصر حافل بالاحداث مضطرم بالفتن والثورات جياش بالآراء والمعتقدات وقد كان أحمد قمة عالية فى دنياه فاذا تحدثنا عن مواقفه وآرائه فانما نتحدث عن رجل قاد مجتمعه وأثر فى توجيهه وشارك فى بنائه وبذلك نرسم صورة هذا العصر الزاخر فى معرض التحليل التاريخى لفرد من أبنائه ومازال القادة من الرجال يلخصون أحداث أحقابهم فى مواقفهم الفاصلة ومعاركهم الحاسمة والبطل مرآة جيله كما يقال ...

لقد كان من الغريب الشاذ أن ينفرد الساسة من الملوك فى عصور الارستقراطية الشامخة والوزراء بتمثيل عصورهم المختلفة فى موكب التاريخ دون أن يكون لسواهم الا ماندر من العلماء والمصلحين نصيبهم القوى فى التعبير والتمثيل مع أن هؤلاء ـ باندماجهم الشعبى ـ أصدق دلالة وأوضح صورة من أولئك فاذا التفت كتاب التراجم فى عصور الديمقراطية الحديثة الى الكلام عن أبطال الحرية والكرامة من رجال الشعب فانما يستغفرون عن تقصير معيب وقع فيه أسلافهم من المؤرخين حين جعلوا القصور وحدها موضع العناية والاحتفال وقد

كان فى تاريخ ذوى البسالة والنضال مجال متسع للحديث كى يتبوأ كل مناضل صبور مكانه الحق فى حرم الخلود من ناحية ــ ولننفى من ناحية ثانية تلك السآمة المملة التى ترين علينا بفتورها العازف حين نطالع تاريخا تقليديا لأناس قذفت بهم الوراثة الى قمم النباهة دون أن تسعفهم الموهبة الدافعة فظلوا فى أضوائهم الباهرة متضائلين منكمشين ...

آن لنا أن نغفل الحديث عمن لايستحقون الحديث ثم نتجه به الى قوم بذلوا العرق والدمع والدم حتى أدوا رسالتهم الخالدة فى الحياة ... وأحمد بن حنبل أحد هؤلاء بلا نزاع واذن فهو جدير كل الجدارة باهتمام المنصفين ...

وقد قرأنا فيما كتب عن الرجل أخبارا كثيرة تحتشد وتتزاحم ، ولم نشأ أن نتخذ مما وقعنا عليه جميعه مادة للحديث بل عمدنا الى مايكشف عن شخصيته ويرسم منهجه فسلطنا الضوء عليه من نافذة التحليل والنقد ، فرب خبر صغير يكتب فى سطر واحد فيكون أصدق فى الدلالة على سلوك صاحبه من مئات الأخبار ولذلك كان موضع الاختيار فى التسجيل والتعليق فهو على وجازته الضئيلة مفتاح سهل لباب الشخصية الموصد ، تديره فيكشف لك ما بالداخل من محتويات ولعل القارىء يعلم أن كتب المناقب ــ فى أخبار علماء الدين خاصة ــ تزدحم بالمبالغات وتفيض بالاغراق ، وقد قرأنا كثيرا مما تلاطم موجه فى هذا المحيط الزخار ولكننا لم نشأ أن نكشف عن مبالغتها الزائفة بل عمدنا الى ماقامت الدلائل على صحته فأخذنا منه الشاهد الذى لايخطىء وسرنا معه فى اتجاهه المنطقى حتى انكشف لنا الامام ــ جهد الطاقة ــ بعواطفه ومشاعره وخلجاته من جهة وبأفكاره ومذهبه ومنطقه من جهة ثانية .. ونرجو أن نكون بذلك قد وضعنا صورته الصادقة فى اطار أمين يبرز أدق الملامح ولايغفل مايستتر وراءها من نبض وانفعال ، نرجو ذلك ونأمله وعسى أن نصل بالقارىء الى مانريد .

عطـريفـوح

هل كان يدرى هذا الفتى الناحل الذى يحمل أوراقه مختلفا الى مساجد بغداد وفى مشيته تؤدة واطمئنان وعلى محياه جد واهتمام أنه سيصبح ملء السمع والبصر بعد أمد قـد يطول ؟ وهل كان يـدرى قرناؤه ولداته أنهم يحفون بطالب علم ذى مستقبل مرمـوق تنتظره الحظوة العالية وترتقبه الشهرة اللامعة ليصبح فيما بعـد نجما ساطعا متألق الأضواء . ؟

ذلكم هو الفتى أحمد بن حنبل الشيبانى الفقيه المحدث الحجة العظيم ...

ولد فى شهر ربيع الاول فى بغداد سنة ١٦٤هـ لأسرة عربية خالصة من شيبان وترعرع فى أكناف هذه القبيلة ذات التاريخ المجيد فسرت فى عروقه دماؤها الأبية النقية وتدارس مايرويه الثقـاة عن أعـلامها البواسل فى الجاهلية والاسلام وحمد الله اذ رأى له سلفا طيبا تتأرج سيرته بالمحامد فهو أصيل معرق ينتمى الى قوم ذوى حسب وتاريخ ...

هـــذا جده القائد الباسل المثنى بن حارثة الشيبانى يحمل الراية المحمدية فى ميدان الفتوح الاسلامية فيطير من نصر الى نصر ويوطىء للاسلام فى بلاد الوثنية فتتقـدم الجيوش الظـافرة تحت لوائه الى العراق والى فارس ميمونا منصورا ثم تتداركه رحمـة الله فتصعد روحه المجاهدة الى سمائها قريرة بما هيأ لها الله من رضوان ، سعيدة بما قدمت للاسلام من أمجاد .

وهذا معن بن زائدة الشيبانى مضرب المثل فى الحلم والشجاعة يتخذ علماء الاخلاق من سيرته مثلا رائعا لسعة الصدر وحلاوة الصفح

ونبل السمات رهو بعد فارس الحومة ، المعلم يميـل الى بنى أميـة فيذود عن حوزتهم وينافح عن سلطانهم حتى اذا اجتمع المسلمون على بيت آخر لبنى العباس انضم الى الجماعة ووقف يوم الهاشـمية دون أبي جعفر المنصور يرمى أعداءه ويناوىء معارضيه . حتى ترجح كفته ويقتاد النصر بعد جموح ...

وهذا يزيد بن مزيد الشيبانى ترمى به الخلافة العباسية الى أقوى الخصوم شوكة وأشدهم شكيمة فينهض للجلى فى بسالة واصرار ، ويلاقى الهول فى معركة فدائية مع فريق ثائر من كماة الخوارج .. فما تهن عريكته بل يسير الى النصر على رءوس الكماة وجماجم الابطال ثم يرجع الى بغداد لتستقبله هاتفة مصفقة فى يوم مجموع له الناس..

وهذا خالد بن يزيد .. وهذا سواه وسواه ...

أمثلة رائعة للبطولة العالية أنجبتها هذه القبيلة الخصيبة فكانت قلادة وضيئة يزدهى بها كل شيبانى طامح .. وأحمد من يوم نشـأته لا يفتخر بأمجاد وأبطال بل يتناقل حديث الآباء فى تواضـع عزيز شـاكرا لله أن أنبت عوده الأخضر فى أرض خضراء فنما واسـتطال .. ماذا يريد القدر لهذا الناشىء الكريم ؟ انه يـدور بعينيه باحثا عن أبيـه فلايجده مقبلا عليه بوجهه الطلق وحنـانه الرحيم لقـد تخطفته المنايا السود فى طفولته فنشأ يتيما يأوى الى أمه الرءوم .. فاذا هزه الشوق الى أرج من سيرة والده الفقيد حدثته الوالدة الحنون عن هذا الجندى الباسل الذى صحب الجيوش ولازم المعارك حتى أدى واجب البطولة فى ريعان شبابه فكان باستشهاده الرائع مثلا آخر يضاف الى ماتقدمه من أمثال ، ثم يسأل عن جده بعد أبيه فيعلم أنه كان واليا فى خاتمـة العهد الأموى ولكنه ثار على الكسروية الأموية فعاون دعاة العباسيين ولقى مايلقاه أصحاب العقائد المخلصة من أذى وتنكيل وقد تحقق أمله فى استئصال البغى فسقطت دولة وتهيأت دولة للنهوض !!

يسمع الفتى الناشىء حديث قبيلته العريقة ثم يسمع أنباء أسرته

القريبة فيرى أنه ذو نسب وحسب ولابد أن يسير فى طريق من تقدمه فى ميدان المجادة والسمو ••• ولكن أى ميدان يريد ؟

لقد كان سابقوه أبطال حروب وهو بطبيعته الرحيمـــة ينفر من الدماء ويتضرم شعوره أسفا أن يفصل رأس عن رقبة او يتطاير ذراع من جسم ، فليست حومات الابطال مراده ومبتغاه ، ولكن هناك مجالس هادئة للعلم يفسر فى حلقاتها كتاب الله ، ويروى فى رحابها حـــديث محمـــد وهى أولى بمهمته الساميــة ، وان بقلبه لحنينا دائبـا لأن يحفظ ويروى ، وأن يستفيد ويفيد ••• لذلك أقبل على كتـــاب الله يتلوه ويستظهره حتى اذا تدفق على لسانه فيضا طهورا من لدن عزيز حكيم نهض الى حديث محمـــد ، يجمـــع أوابده وينقل فرائده ، ويبســـط الصحف الكثيرة مليئة بهديه الحميد ، وقد برح به حب الحديث تبريحا يكابد منه مايكابد العاشق من صبابته فهو لايغفـــل عنه فى روحة أو غدوة بل يظل يتلقاه عن شيوخه مستوضحا وكاتبـــا وحافظا حتى اذا رجع الى بيته أجراه على لسانه نشيدا يترنم به ، وفى كل قراءة ينكشف له معنى جديدا حتى صـــار الهـــدى النبوى شـــغلا شاغلا لقلبه وعقـــله ولسانه وأحبب به من مشغلة تضىء العقل وتنير القلب وتهـــدى الى السماء •••

لم يكن اكباب أحمد على القرآن والحديث بمانعـــه أن يدرس قواعد اللغة وعلوم الأدب فهى الطريق الأول الى اجادة الافصـــاح وسلامة التعبير ولن يكوان فقيه محدث بدون لغة وبيان ومادام الادب وسيلة جيدة للشرح والتبيين فلابد أن يوجه اليه الشاب همتـــه وهو ـ بعـــد ـ العربى الشيبانى الذى ورث الفصاحة فيما ورثه عن قبيلته من أخلاق لذلك كان طريقه اللغة والادب ذلولا معبدا ، فما عتم أن ألم بقواعد القول وأصول الكلام فسلم لسانه من الخطأ وساعده اطلاعه الادبى فى بحثه العلمى ففهم القـــرآن فهم الخبير المتضـــلع وانكشف له من اسرار اعجازه مازاده ايمانا وايقانا •• وحرص على الحديث حـــرصا بالغا وقد تألق فى عينيه فصاحة ونصاعة وتشربته نفسه شهدا مذابا فيه

جلاء العقل واشباع الوجدان .. وقد سلك مسلك الجد الصارم فى حياته العملية يافعا وشابا وكهلا وشيخا فكان اذا أقبـل على العلم فى احدى حلقاته طالبا أو مدرسا انصرف عن كل شيء سواه واتجه اليه اتجاه من لايرى فى الحياة شيئا دونه فاذا ندت بادرة شاذة من أحـد رفاقه تحملها صامتا على مضض ، واذا عنت فكاهة طارئة لم يشارك فى استحسانها بعض المشاركة بل كل شيء غير الفقه والحديث فى اعتقاده هباء أى هباء وقد عرف رفاقه الأجلاء هذا عنه فكانوا لا يمزحون فى حضرته فقد روى ابن نعيم عن خلف بن سالم انه قال « كنا فى مجلس يزيد بن هارون فمزح يزيد فتنحنح أحمد بن حنبل ، فضرب الشيخ بيده على جبينه وقال ألا أعلمتمونى أن أحمد هنا حتى لا أمـزح » (١)

والفكاهة فى مجالس الشرح قد تكون مرغوبة نافعـة لأنها تزيل بعض السأم المتكاثر من الجد المتواصل وتخفف كثيرا أو قليلا من أعباء باهظة ينوء بها العقل المستوعب ، وقد كان رسول الله يمـزح ولكن لايقول الا حقا فمن اتجه اليها أو رحب بها من الاساتذة فله وجهـة نظره التربوية مالم يبالغ فى كثرتها مبالغة تذهب ببهاء الدرس ورونقه وتصرف الطلاب عما هم بصدده من الاستيعاب والتحصيل ولا نظن أستاذا مخلصا يبلغ بها هذا المبلغ الوبيء ولعل أحمد بن حنبـل كان يكره الفكاهة فى مجلس العلم لشيء فى نفســه فهو يعكف على دروس الفقه والحديث ولهما من التجلة والهيبة فى رأيه ما يعصمهما من المـزح والتندر ، أما دروس الأدب والشعر واللغة والتـاريخ فما نظن الامام يتشدد فيها هذا التشدد ، ولنا أن ندرك من ذلك شغفه الزائد بفقـــه الكتاب وتعظيمه البالغ لهدى السنة ، ولم لايكون الوقار المهيب طبيعة ملازمة تسيطر عليه فى نفسه فتأبى كل مايخدش رزانتهـا الجليلة من مزاح .. ذلك صنف من الناس يطيق ما لايطيقون ...

هذا الوقار المهيب قد ظلله فى نشأته اليافعة فكان الصبى الناهض بين من يعرفونه موضع الاحترام والتجلة ، وله من تقواه وصـلاحه

---

(١) الامام الممتحن ص ٥

وارتفاعه عن نقائص لداته مايجعله موضع الثقة من العامة والخاصة ؛ حتى ان نساء بغداد كن لا يأتمن غيره فى قراءة الرسائل القادمة من أزواجهن ، اذا اغتربوا فى الجهاد والغزو فكن يسعين الى بيت أحمد وحده ، ومعهن الكتب الواردة فيفض غلافها ويقرؤها فى أدب وأمانة ثم يجيب عنها بما تريده صاحبة الشأن ويصبح ذلك كله نسيامنسيا فلا يعلم أحد مادار بين الزوج وزوجته من حديث .. ولولا سمعة الرجل وسلوكه القويم ما أصبح موضع الامانة والاستقامة من نفوس الجماهير ...

وأمرثان يشير الى تقواه وورعه فى صباه حيث تجمح الأهواء وترسل النفوس الى نزواتها دون وازع أو رقيب فقد كان أحد أعمامه يراسل الولاة بأنباء الرعية لترفع الى الخليفة لقاء أجر ثمين يصلح به معاشه ويرغد حياته ، وغاب يوما عن المدينة لبعض شأنه فكلف ابن أخيه الناشىء أن ينهض بها الى الوالى وله منه الأجر الجزيل والحظوة العالية ولعله يكون موضع اختياره فيتدرج قدما فى مناصب الدولة حتى يصل الى مايريد الناس من عزة وجاه . وانتظر الوالى أن تأتيه الاخبار فامتنعت وجاء عم أحمد ليقول .. انه كلف بها ابن أخيه وانعقد مجلس الثلاثة فى بيت الوالى لمحاسبة المتخلف المتأخر ولكن الغلام الناشىء يصرخ فى وجهى الرجلين الرشيدين « لست ممن يجمعون الاخبار ــ انى أخاف الله » ولك أن تتصور بخيالك من وراء الغيب تضاؤل الرجلين وانكماشهما أمام صيحة حق مرعدة من غلام صغير .. ولك أن تتصور بخيالك من وراء الغيب عظمة أحمد وسموه وقد علا بالكرامة علوا فى مجلسه وتلألأ وجهه بنور الايمان فجعل الوالى يسترجع فى خشية ويقول : « لا حول ولا قوة الا بالله !! !! غلام صغير يتورع ونحن هالكون »

(١) طفق الناشىء الطامح يحضر مجالس الكبار وسنه دون السادسة عشرة وفى عينيه بوارق تومض بالرفعة وتكشف عما يكون لصاحبها

---

(١) المناقب ص ٥

من مقام حتى قال الهيثم بن جميل .. ان لكل زمان رجلا يكون حجة على أهله ، ولقد كان الفضيل بن عياض حجة على أهل زمانه وأظن هذا الفتى ان عاش سيكون حجة على أهل زمانه وهو يعنى أحمد بن حنبل .

ولقد حضر قوم من المشتغلين بالحديث والفقه مجلس الأمام الكبير أبى عاصم الضحاك فقال لهم « ألا تتفقهون وليس فيكم فقيه ؟ وأخذ يلومهم فقالوا فينا شاب صغير سيجيء الساعة وكانوا يعنون أحمد بن حنبل فما لبث أن حضر فقال له أبو عاصم : تقدم أيها الفتى فأجاب فى أدب : أكره ان اتخطى اليك الرقاب ، فقال أبوعاصم : تلك أولى دلائل فقهه ، أوسعوا له اوسعوا له .. فأوسعوا له .. فأوسعوا حتى دخل فجلس بين يديه فألقى اليه مسألة فأجاب وثانية فأجاب وثالثة فأجاب فتعمق به الى مسائل دقيقة ذات بواطن وشجون فنفذ اليها ببصيرته وأجاب الاجابة الموافقة فقال أبو عاصم ، هذا الفتى من العجائب (١) .. »

تلك وأمثالها ــ شهادات مزكية على ملأ الناس من أئمة يقولون فيسمعون ولو كانت لغير أحمد لطار بها فى كل أوج وجعلها أغرودة يشدو بها فى مجالس اعتداده وتباهيه ولكن الفتى يعدها تشجيعا جميلا على السير وحثا طيبا على العمل وأثرها فى نفسه لا يتجاوز شحذ العزيمة واحكام التصميم ليبلغ من دينه وعلمه مبلغا ينال به حظوة ميمونة لدى الله وحده دون اعتبار للناس وهو لذلك يرحل من مكان الى مكان ويترك فقيها ليحادث فقيها ، ودواته فى يده ، يردد ما يسمع ويحفظ مايعى ، وعلى الله قصد السبيل .

لقد طلب الحديث فى بغداد فرواه عن ثقاته العدول وكان ينهض فى منتصف الليل ليخف الى المسجد منتظرا حلقة الدرس فترحمه أمه وتأخذ بثيابه فلا تتركه حتى تسمع آذان الفجر والفتى يخضع لارادة والدته غير راض عن بقائه فى حجر بيته ولخير له أن ينهض وحيدا فى

---

(١) الامام الممتحن ص ٦

رهبة الليل وسكونه قائما وقاعدا فى مسجد ربه يحذر الآخرة ويرجو رحمة خالقه ، من أن يظل رهين داره فلا يسعد بركوع أو بسجود ، والأم المشفقة تنظر الى برد الليل وظلامه وقطاع طريقه فتحذر أن يلم بفتاها الصغير بعض مايؤذيه فتأخذ بتلابيبه حريصة شفيقة . حتى اذا رأت الناس يروحون ويذهبون صرفته الى مبتغاه وفى عينيها أمل وعلى لسانها دعاء ..

ولم لايحب أحمد مسجد بغداد وفقه بغداد ؟ وهذا أستاذه هيثم بن بشير الواسطي يقرئه حديث محمد فى سكينة وخشوع وكان ذا سمت حسن ونطق فصيح وله هيبة فى نفوس تلاميذه فلا يسأل عن مسألة حتى يلتمس السؤال ، ولصوته رنة حلوة عالية تتجاوب بها أصداء المسجد الفسيح فتحيلها نغما علويا يسبح فى الآفاق ، ومن عادته أن يسبح بحمد الله بين رواية ورواية وحديث وحديث ، فاذا انتهى من أثر نبوى رفع عقيرته الناغمة بقوله : لا اله الا الله مادا حروفها موقعا كلماتها . فيعترى المجلس خشوع مهيب ويستشعر القوم خشية الله وجلاله فينسون عالم الأرض ويطيرون بأجنحة الى السماء .. وما تظن بأحاسيس أحمد ومشاعره عند ذلك .. وقد نسى الحياة والاحياء وعاش مع آثار رسول الله ...

عاش مع آثار رسول الله فى بغداد ، حتى اذا استنفد ما بها من علم ، عزم على الرحلة الى مختلف الجهات من يمن وحجاز وكوفة وبصرة فأخذ يلقى رجال الحديث ليكتب من أفواههم مايقولون . والرحلة فى عهد أحمد عناء لازب وجهد مرهق فلا طريق معبد ولا لفقة تهيىء الدابة الذلول !! !! بل اعتساف فى الوعر والسهل وخبط فى الصخر والقفر وصبر على الفاقة والحرمان مع ترفع كريم عن العطاء وتأب شريف على الهوان والاستجداء !! !! وما تظن بعالم مفضال كأحمد بن حنبل تضيق به ذات يده فى رحلة الى اليمن فلا يلتمس قرضا من رفيق أو يطلب زادا من صديق بل يكرى نفسه حمالا فى الطريق فيضع على عاتقه الواهن مايثقله ، من عبء كى يناله رزقه سائغا حلالا دون من يكدره أو هوان يؤذيه ..

ولقد كان لأحمد متسع عن الكدح واللغوب لو نسى مثاليتـه الخارقة لحظة من اللحظات وعاش فى الواقع قليلا فقبل عطايا الخلفاء كما يقبلها غيره من الأئمة الأعلام !! !! !!

ان الخليفة حين يهب رجال الحـديث والفقه ، شـيئا من مال المسلمين لايهب من بيت أبيه وجده ، ولكنه ينفق مال المؤمنين على جماعة منهم وقفوا أنفسهم على حفظ الشريعة وصيانة الاسلام كمـا ينفق مال الدولة على الجنود وأرباب الوظائف ممن يصونون ثغورها النائية ويحفظون ادارتها المتشعبة !! !! بل ان صيانة العقيدة أقوى أثرا وأشد باعثا ، فاذا أخذ الفقيه مال الدولة فقد أخذه من طريق مأمون لقاء عمل شاق وجهد طويل !! !! تلك وجهة من أخذوا حظوظهم من بيت المال فاستعانوا بها على المكروه وعاشوا فى غبطة ونعيم (١) !!

ولكن أحمد يرفض عطاء أصـحاب الحديث فيفرق على زملائه وتتدافع الأيدى الى اقتناصه وهو معرض يشيح !! !! ذلك مبدأ تشربه ولن يتزحزح عنه فى قليل !!

ونحن نتساءل .. هل كان الرجل يجهل أن المال مال الدولة وأنه صاحب حق مشروع ؟

لاشك أن أحمـد فى علمه وفقهه يعلم ذلك ، ولكنه يخشى أن يكون ذلك المال ذريعة لتحكم السلطان وارضائه فهو اذا قبل المنحة فتح على نفسه بابا من الهواجس والشكوك فربما اعتقد صاحب الأمر انه ذو فضل عليه ، فلاحقه برغبات لايرضى عنهـا الأبى العيـوف فى شىء وأولى أن يوصد أمامه كل منفـذ للظنة والريب فيظل شـامخا مرتفعا لايحس لأحد بسـيطرة عليه غير الله وتلك هى عزة المؤمنين وسبيل الحفظة الأباة ..

ضرب الامام فى مناكب الأرض شرقا وغربا طلبا للحديث وحجا

---

(١) صاحب هذا الرأى هو الاستاذ أبو زهره فى كتابه عن ابن حنبل ص ٧٥

لبيت الله !! !! ولاشيء غير ذلك وراء هذه الرحلات المتلاحقة ابتغاء وجه ربه ، وقد حج رضى الله عنه مرتين راكبا وثلاث مرات ماشيا !! وحدث أحد أبنائه أنه أنفق فى احدى حجتيه الأوليين عشرين درهما فأى احتمال للبلاء والجهد والحرمان أعنف من هذا الاحتمال !! ؟ عشرون درهما ينفقها حاج مرهق فى مدى ستة أشهر ذات أسـابيع وأيام !! ؟ وهو مع ذلك يترفع عن عطاء له فيه حقوق ، ويتسـامى عن ضروريات يصيبه افتقادها المرير بعناء أى عناء !!

وأى مورد لأحمد يصيب منه الكفاف ؟ لقد ترك له والده عقارا يغل عليه سبعة عشر درهما فى كل شهر ، فكان يقنع بايراده صـابرا حتى اذا اشتد به الضيق أخذ يلتقط بقايا الزرع مما هو فى حكم المباح اذ أن أصحاب الحقول يتركونها للسـابلة دون رغبة فيما تركوه مع حرصه البالغ على ألا يلج أرضا مادون اذن من صاحبها !! !! وهـو فى التقاطه وجمعه لايفسد زرع أحد بل يفتى بحرمة من يفعـل ذلك ويدعو الى الصلاح والاصلاح وربما أعسر فى غير موعد الالتقـاط أو مكانه فنسخ الكتب وباعها أو نسج التكك وعرضها .

قال على بن الجهم : (كان لنا جار فأخرج لنا كتابا فقال أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا هذا خط أحمد بن حنبل قلنا : فكيف كتب ذلك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينه ففقدنا أحمد أياما ثم جئنا لنسأل عنه فاذا الباب مردود عليه ، فقلنا ماخبرك ؟ قال سرقت ثيابى فقلت معى دنانير فان شئت قرضا وان شئت صـلة فأبى . فقلت : تكتب لى بأجرة ؟ قال : نعم فأخرجت دينارا فقال : اشـتر لى ثوبا واقطعه نصفين يعنى : ازارا ورداء وجئنى بورق فكتب لى هـذا)

وروى الذهبى عن اسحق بن راهويه (كنت وأحمد باليمن عند عبد الرازق وكنت أنا فوق الغرفة وهو أسفل فاطلعت على أن نفقته فنيت ، فعرضت عليه فامتنع فقلت ان شئت قرضا وان شئت صلة فأبى فنظرت فاذا هو ينسج التكك ويبيع وينفق)

فالرجل فى الروايتين السابقتين يرفض الصلة من الناس مهما أعسر !! ثم يرتقى فيرفض القرض وهو عار لايجد مايستر به نفسه بل يأتزر بجدران بيته فلا يطلع الناس على شيء من جسمه والقرض جائز مافى ذلك شك !! !! ولكنه فى منطق أحمد لايليق بصحيح معافى قادر على العمل فلان يكدح ويكد خير من أن يقترض ، ثم متى يسد هذا القرض ؟ وغده كيومه لايسعفه بغير الضرورى الشحيح !!!! فالعمل اذن طريق المال !!! وبغير العمل لاتهدأ نفس تتحرر عن الشبهات وتطمح الى مستوى خلقى كريم !! !!

المال الحلال شعار أحمد ولن يكون حلالا الا اذا خلص من كل شائبة فلا صلة يكدرها من ولا قرض يتعذر معه رد ووفاء !! !! واذ ذاك تطمئن النفس فلا تجزع ويهدأ الخاطر فلا يرتاع ، قال عمر ابن صالح الطرسوسى .. سألت أحمد بن حنبل : بم تلين القلوب ؟

فنظر الى أصحابه وكأن السؤال أعجبه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : يابنى تطمئن القلوب بأكل الحلال !! !! فمررت ببشر ابن الحارث فسألته .. بم تطمئن القلوب ؟ فقال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ؟ فقلت له لقد جئت من عند أبى عبد الله الآن قال .. فماذا قال لك ؟ قلت قال : بأكل الحلال فقال جاءك بالجوهر جاءك بالأصل (١)

فأكل الحلال أساس الاطمئنان لأنه يجعل صاحبه مستريح النفس لايؤذيه ضميره بتأنيب ، ولا تزعجه هواجسه بشر !! !! ولن تطمئن القلوب بذكر الله الا اذا كان الذاكر متحرزا عن الحرام ، منصرفا الى الحلال متذكرا أوامر ربه ونواهيه ، واذ ذاك يطمئن قلبه بذكره وتسبيحه وكم من ذاكر يسبح الله ولايطمئن له قرار لأن سلوكه الدنيوى لايمهد له طريق الهدوء والاطمئنان !! أما الذاكر الذى يطمئن قلبه بذكر ربه كما ذكرت الآية الكريمة فهو صاحب الخير المحض والحلال الصريح

---

(١) الامام الممتحن ـ المطبعة السلفية

واذا كان أحمد قد تحرج من القرض المباح فقد تحرج أيضا من ولاية القضاء باليمن !! !!

وهو فى تحرجه من قبول هذا المنصب الدينى الخطير يختلف عن أبى حنيفة رضى الله عنه فى رفضه القضاء على عهد أبى جعفر المنصور اذ أن الامام الأعظم رضى الله عنه كان لايثق فى دولة الخليفة العباسى ويرى الرضا بالقضاء فى حكومة ظالمة لايمكن أن يؤدى الى تنفيذ أوامر القاضى العادل ونواهيه ، فالرفض هنا يرجع الى الخوف على العدالة ، والحرص على احقاق الحق ، ولكن أحمد حين رفض قضاء اليمن قد نظر الى شىء غير ذلك ، اذ خاف أن يشغله القضاء عن تلقى الحديث وروايته وهو لم يكابد عناء السفر من بغداد الى اليمن الا لينهل من معين المحدث الراوية عبد الرازق بن همام !! !! فرواية الحديث فى تقديره أهم من التصدر للقضاء مهما عاد عليه بالجاه والمال على أن الشافعى رضى الله عنه هو الذى رشحه للقضاء منتهزا فرصة وجوده باليمن ليصيد عصفورين بحجر واحد ولكن هيهات !! !! فهو يتوجه برغبته الى زاهد متقشف يرى أن الأعمال بالنيات !! !! وربما فسدت النية قليلا بالاتجاه الى عرض من أعراض الحياة !! فيجعل رحلته خالصة للحديث الشريف ففى ذلك راحة الفؤاد واطمئنان الضمير !! !! ونحن لانرى فى قبول قضاء اليمن حرجا دينيا أو مشقة دنيوية بل ربما كان ذلك فى مصلحة القضاء والمتقاضين اذ يتولى أمورهم فقيه مخلص ورع يحرص على أن يقيم الموازين الصحيحة دون نظر لغير الحق الصريح ، نقول ونحن لانرى فى قبول قضاء اليمن حرجا أو مشقة اذا كنا بازاء رجل طامح يحرص على المجد والسمعة !! ولكننا بازاء أحمد بن حنبل وكفى !!!

وهناك أمر جدير بالنظر فقد ذكر الرواة أن أحمد قد اتفق مع يحيى بن معين على الذهاب الى اليمن للرواية عن عبد الرازق فاتفق أن قابلاه بمكة فى حجه فقال يحيى لقد توفر الجهد ، لنأخذ عنه الحديث هنا دون حاجة الى مشقة السفر أو صعوبة الطريق ولكن

أحمد يصر على الرفض ويصمم على الارتحال وأستاذنا الكبير محمد أبو زهرة ، يعلل ذلك فيقول فى كتابه ص ٢٥ (١) (لقد لاحت له الفرصة التى تغنيه عن الهجرة فلم ينتهزها وآثر أن يضرب فى الارض مهاجرا فى سبيل العلم ، ولم يرد أن يأخذه رخاء سهلا تسهله المصادفة ، وتقربه الفرصة خشية أن يتعود ذلك فلا يركب فى سبيله المركب الصعب ويحتمل العيش الخشن ، وقد تحقق ما احتسب فسافر الى صنعاء وناله العيش الخشن والمركب الصعب اذ انقطعت به النفقة فى الطريق فأكرى نفسه من بعض الحمالين الى أن وافى صنعاء)

هذا قول أستاذنا الكبير محمد أبى زهرة ونحن نخالفه ولا نراه اذ أنه يجعل التعب والمشقة هدفا مقصودا فأحمد قد تمكن من رواية الحديث بمكة عن عبد الرازق ولكنه أراد أن يتعب وينصب فسافر الى اليمن دون موجب غير النصب والاجهاد ، ولو كان الأمر كذلك لكان أحمد مخطئا فى تصرفه اذ لا يعقل أن يبذل عاقل ما عناء جاهدا دون طائل . ولكن ابن حنبل رأى أن مدة الحج محدودة موجزة فهى لا تزيد عن أشهر قلائل يتفرغ فيها الحاج الى مناسكه وصلواته وتلبياته ولو حدثه عبد الرازق بمكة ما استطاع أن يغنم منه جميع مايريد .

واذن فلابد من الذهاب الى اليمن مهما تكبد المشاق والصعاب !! وهناك يتلقى حديث الرسول دون ماعجلة واسراع وقد ذهب الامام الى اليمن ومكث بها سنتين طويلتين ونال فيهما مايريد ورجع غانما ظافرا فهل كانت مدة الحج التى لا تزيد اذ ذاك عن شهرين يقضيان بمكة ثم يرجع كل الى طيته ، كفيلة باشباع حاجة أحمد ؟ هذا مالا نظنه أو نرتئيه !! !!

وقد رزق الأمام حافظة قوية ساعدته على مهمته الخطيرة فى الرواية والتدوين فكان يوجه كل انتباه الى حفظ الاحاديث اسنادا ومتنا

---

(١) ابن حنبل ص ٢٥

وأبدى من ضروب المهارة فى هذا المضمار عجبا أىعجب !! !! وليس له نظير فى ذلك غير معاصرة الأمام البخـارى فكأن الله عز وجل قد رزق هذين الامامين ، حافظتين قويتين ليصـون تراث نبيه ويحفظ آثار الشريعة الكريمة هذا الى شغف زائد لديهما رضى الله عنهمـا بالاستيعاب والاستظهار واذا تحولت الرغبة الى شغف وكلف فقـد سهل الصعب ودنا البعيد !! !!

حدث الامام أحمد عن نفسه قال : « كنت أذاكـر وكيعا فربما ذكر تسعة أحاديث أو عشرة فأحفظها فاذا دخل قال أصحاب الحـديث أمل علينا فأملها عليهم فيكتبونها !!

وقال الخلال [1] حدثنا أبواسمعيل الترمذى ، سـمعت قتيبة ابن سعيد يقول : كان وكيع اذا كانت العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل فيقف على الباب فيذاكره فأخذ وكيع ليلة بعضادتى الباب ثم قال : يا أبا عبد الله أريد أن ألقى عليك حـديث سفيان قال : هات قال تحفظ عن سفيان عن سلمة بن كهيل كذا !! ؟ قال نعم حـدثنا يحيى فيقول سلمة كذا وكذا فيقول وكيع لا ثم يأخذ فى حـديث شيخ شيخ قال فلم يزل قائما حتى جاءت الجـارية فقالت (قد طلع الكوكب) .

فوكيع لايستصحب من تلاميذه غير أحمد وهو يحدثه عنالأثر عن طريق فيحدثه التلميذ عنه من طرق ثم يسأله أحمـد عن أحاديث فلا يعلمها ويظل يروى من محفوظه ما غاب عن أستاذه حتى مطلعالفجر ولن يتاح ذلك لغير حافظ موهوب !!

وقد يكون حفظ المتن ميسورا سهلا اذا قيس بحفظ الاسناد فأنت تستطيع أن تحفظ عشرة أحاديث فى وقت واحد اذا جردت عن اسنادها المتصل فاذا اقترنت به شاهدت أسماء كثيرة متشابهة متداخلة وقد يختلط اسـناد باسناد فلايفطن الى صـحة الرواية غير باحث

---

(١) ترجمة الذهبى ص ٦٤.

خبير !! وأحمد كان لايحفظ حديثا بغير اسناده وقد يكون للحديث الواحد عدة أسانيد يحفظها المحدث دون عناء (١) قال عبد الله بن أحمد « قال لى أبى خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع فاذا شئت أن تسألنى عن شيء من الكلام حتى أخبرك بالاسناد واذا شئت بالاسناد حتى اخبرك بالكلام واذن فالمتن والاسناد سواء فى حافظة الامام !!

هذه حافظة أحمد نقدمها لمن يريدون أن يعرفوا نعمة الله على عبده فى قوة الذاكرة وصحة الاستيعاب ونقرنه فى ذلك بمعاصرة الامام البخارى فقد تواطأ رجال عشرة على تخطئته وأعدوا مجلسا لذلك فأخذ مائة حديث فقبلوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن كل اسناد لغير أصله وقام كل مزور من العشرة يروى ويسأل فيقول الامام البخارى لا أعرف حتى اذا فرغوا من اسئلتهم الكاذبة اندفع البخارى يقول .. روى الاول .. كذا وصواب متنه كذا ، وصواب اسناده كذا ومازال يصحح ويمحص حتى رد كل اسناد الى متنه وخسئت نفوس ظالمة راحت تتعمد التدليس والايقاع (٢) هذا هو البخارى وذلك أحمد فهل لهما الآن من مثيل !! ؟

ومع هذا الحفظ الدقيق كان ابن حنبل لايروى الا من صحيفة أو كتاب ، انه يخاف أن يزل لسانه فيروى حرفا على غير وجهه أو يزيد كلمة ليست فى موضوعها او ينقص لفظا يحتاج اليه السياق فلابد من كتاب يقطع الشك ـ على بعده ـ فهو مهما اتعب فى الحمل والبحث أيسر من خطأ ينسب لصاحب الدعوة !! وتلك تتزلزل لها الجبال وتثور البراكين !!

يالله !! يدخل المسلم مسجد بغداد فيرى علماء الحديث يروون من غيب صدورهم مايحفظونه وفيهم من يباهى بقدرته على الاستظهار والتحصيل وهو لايبلغ معشار أحمد فى سلامة حفظه وقوة ذاكرته والامام المتحرج الدقيق لاينطق بما يحفظ بل يحمل كتبه الى مجلسه

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى

(٢) هبة الايام ص ١٠ بتحقيق الاستاذ محمود مصطفى .

فاذا سئل بحث وقرأ فى آدب وخشوع وقد يجيب بحديث رواه عشرات وعشرات من المرات وهو فى تحرجه لايجيز أن يقرأ على الناس من غيب صدره ذلك حرص عجيب !!

قدم عليه رجل من مرو يسأله عن حديث حار فى روايته الرواة فأمر ابنه عبد الله أن يحضر له كتاب الفرائد ليبحث عن الحديث فيه ولكنه لم يجده فقام بنفسه وأحضر الكتاب وكان عدة أجزاء وجعل ينشد الحديث حتى اذا وجده قرأه لطالبه !!

والرجل يعجب لتواضع امام ضربت بقوة حافظته الأمثال ومع ذلك يعتصم بالتثبت ويحرص على الكمال ولو مررت بمجلس أحمد فماذا أنت واجد ؟ ستجد رجلا نظيف الثوب حسن السمت ينطق بالكلمة فى خشوع وأناة فاذا سكت قليلا رفرفت عليه هيبة وضيئة فاتجهت اليه الانظار فى سكوته كما تتجه اليه فى درسه وكل انسان يستشف من قسمات هذا المحيا الهادىء معانى رائعة ترتفع بصاحبها ارتفاعا كريما . فأحمد فى هدوئه الساكن يعظ بصمته الهادىء وطابعه الرضى ويوحى للمتفرس المتأمل بما يملأ فؤاده حبا وهيبة فيتمنى لو أطال النظر واستشف وفى الوجوه وجوه تديم اليها النظر فتزداد لها اعظاما واجلالا فكأنها كتاب مدون تقرؤه صفحة صفحة فتتيح لك سطوره من المعانى الجليلة مالاتجده فى سفر مرقوم !! !!

قال ابن أبى حاتم..سمعت عبد الملك الميمونى يقول... ما أعلم انى رأيت أحدا أنظف ثوبا ولا اشد تعاهدا فى نفسه وفى شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه من أحمد بن حنبل !! !!

ونحن نقول لقد وصف عبد الملك الميمونى المظهر الحسى الماثل للعيان ولو مضى ببصيرته الى المعنى الأدبى الكامن فى الأطواء لقال... ما أعلم انى رأيت أحدا أنقى سريرة وأعز تواضعا وأصدق تقوى وأخلص عقيدة من أحمد وهذا ماكان !! !!

منهج واضح

أحمد امام هل السنة !!

هذا وصف الامام الذائع ولن تجد وصفا ألزم بصاحبه منه !! فأنت لو حاولت ان تجمع خصائص الرجل فى كلمة يسيرة صادقة ماوجدت أصح من هذا الوصف الوجيز !!

أحمد امام أهل السنة فهم جميعا يلوذون به ويتبركون باسمه ويتهافتون على آثاره ، ويتوجهون بذكره الى الله قربانا ودعاء !! ولن يكون ذلك لغير امام مكين !!

قال أبوثور فى أحمد بن حنبل (1) لو أن رجلا قال ان احمد ابن حنبل من أهل الجنة ما عنف على ذلك ، وذلك أنه لو قصد خراسان ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح ولو قصد الشام ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح فهذا اجماع وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح فهذا اجماع ولو عنف هذا على قوله بطل الاجماع .

فرجل يحرز هذه الثقة فى مختلف بلاد الاسلام لابد أن يتبوأ مكانة الامامة من النفوس بحيث لو اصدر رأيا فالقول ماقالت حزام !!

والصلاح الموصوف به أحمد فى هذا القول لايقف عند الورع والتقوى كما قد يتبادر فى بعض الاذهان ولكنه صلاح فى الفقه وصلاح فى الرواية وصلاح فى المسلك والمذهب وصلاح فى كل شىء يتسم به رجل كبير .

---

(1) المناقب ص ٢٤

يقول الأستاذ محمد أبو زهرة [١] : كان أحمد رجلا صالحا .. فهو المحدث لأنه الرجل الصالح وهو الفقيه الذى غلب وصفه بالصلاح وصفه بالفقه ، بل ان صلاحه كان يمنعه من السير فى فقهه الى أقصى مداه ، فكان يتوقف حيث يسير غيره ، ويتردد حيث يجزم سواه ، ويحجم بالمعنى حيث ينطق غيره ، ويسكت عن الفتوى حيث يسارع سواه ، ورجل عرف بصلاحه لدى جمهور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لا بد أن يكون له الصوت المسموع والرأى الجهير وقد يصدر حكمه عن زيد من الناس فيصبح قضية مسلمة لاتقبل الجدل، ولو كان لرجل من المكانة قدر كبير فى نفوس الناس وحكم عليه أحمد بشىء مما يريب لتبددت مكانته فى الهواء .... ونظر اليه الناس بمنظار أحمد فأشاحوا عنه معرضين ...

قال عمر بن الحسن القاضى .. سمعت أبا يحيى الناقد يقول .. كنا عند ابراهيم بن عرعرة فذكروا على بن عاصم فقال رجل : أحمد بن حنبل يضعفه فقال آخر ومايضره ذاك كان ثقة ؟ فقال ابراهيم بن عرعرة..والله لو تكلم أحمد بن حنبل فى علقمة والأسود لضرهما[٢].. ومعلوم ان أحمد لايتكلم فى رجل ما عن هوى مغرض ، بل ان ميزان الترجيح فى يده لايخرج عن الكتاب والسنة .. فقوله قول الشرع .. وبذلك كان الوصف السابق أصدق أوصافه عند الموازنة بين الألقاب والصفات .

وكيف صار امام أهل السنة وعلى أى طريق سار .

ان الامام قد أشرب منذ صغره حب محمد صلى الله عليه وسلم واتخذه مثله الأعلى ورائده العظيم ثم تتبع آثاره من قول وعمل فآمن بهما ايمان المتحمس الغيور ثم تحولت هذه الآثار دما يتدفق فى عروقه وعصبا يمتد فى بنائه فهو يصدر عنها فيما يأتى ويدع ، وأنت تستطيع أن تعرف رأى

---

(١) ص (١) من كتاب ابن حنبل
(٢) ترجمة أحمد للحافظ الذهبى

أحمد فى مسألة من المسائل « اذا رأيت حديثا بويا » يتحدث عنها فى مسند أحمد وان لم تجد النص الفقهى له فى ذلك فالحديث مذهبه .. والأثر قبلته ، ولولا السنة المطهرة مارأينا مئات الكتب فى مذهب أحمد ولذلك تفصيل بين سيجىء بعد حين .. لقد حفظ الرجل آلاف الاحاديث عن رسول الله ، وكم فى الناس من حفاظ مكثرين ولكن شتان بين حفظ وحفظ .. وفرق بين اتجاه واتجاه ، فقد تجد أناسا يلمون بالاحاديث، ويستظهرون الآيات فاذا استمعت اليها ، راعك النهم الزائد فى التحصيل وبهرك الاطلاع الواسع على الأثر الكريم .. ولكن ذلك لايعدو الحفظ والتسميع وقد يجر الى المباهاة العريضة والتطاول البغيض ..

لم يكن أحمد من هؤلاء الحفاظ وحاشا أن يكون ؟ ولكنه كان يحفظ الحديث فيخلطه بوجدانه ويمزج به مشاعره وأحاسيسه فاذا قال فعن هديه واذا فعل ففى ضوئه .. ومن ثم فقد كان يتدبر الأثر ويتأمله ويرى طاعته حتما مفروضا وواجبا مقدسا لايحيد عنه قيد شعرة مهما أجهده الأمر وضاق به السبيل ..

اشتد عليه المرض فى آخر ساعاته فكان يعض على شفتيه ويتحمل مرهقات الأوضاع فى كبت كظيم ولا يسمح بأنة ملتاعة تسرى عنه بل يجاهد فى منعها لأنه روى فى الأثر عن طاووس أن رسول الله كان يكره الأنين !!!

وتثقل عليه العلة فلا يستطيع أن يقوم بما كان يقوم به من اكمال الوضوء على مذهبه الدقيق فينادى ولديه ويشير عليهما أن يخللا بين أصابعه وأن يغسلا الظاهر والباطن لأنه روى سنة تخليل الأصابع عن رسول الله !!

وينهض للصلاة فى آخر أيامه ، فيدعو ابنه ليسنده فى قيامه وركوعه وسجوده وكان فى القعود متسع عن هذا الارهاق الممض!! ولكنه يعلم ان الأثر النبوى يفضل صلاة القائم عن صلاة القاعد !! فالقيام أولى به دون القعود !!

لسنا نرمى الامام بالتشدد والتزمت فذلك يكون حينما يوجبه على غيره ومذهبه الفقهى يرى أن الدين يسر لا عسر ويبيح الرخصة للمريض عند الاحتياج ولكنه يلزم نفسه وحده بأشياء يرى فيها راحة لوجدانه واشباعا لعاطفته اذ أن مخالفة السنة لدى من يهيم بها هيام أحمد خطب جلل وحادث خطير هذا هيامه بالسنة فكيف هيامه بصاحبها عليه السلام

الحق ان أحمد كان متيما بأحمد وقد عد من حظوظه السعيدة أن يسمى به فى طفولته واحتسبها منة جزيلة تضاف لأمه وأبيه بوافر الحمد وجزيل الثناء وكان ميلاده فى ربيع الأول فألا سعيدا يتيمن به ويراه منحة عالية من السماء ولعل روحه فى ملأها الاعلى تزغرد مبتهجة وقد صعدت الى بارئها فى الثانى عشر من ربيع ! ! لذلك لم يكن عجيبا أن يتسرى احمد على غير حاجته ، كما تسرى الرسول وان يسمى بناته بفاطمة وزينب كما سمى الرسول وأن يسمى حفيديه بالحسن والحسين كما فعل الرسول أيضا ، وتلك أمور لها دلالتها الواضحة ومرماها الشريف !!!

لم يكن عجيبا أن يحتجم أحمد فيعطى الحجام دينارا مع أنه يقبل درهما واحدا ولم يكن الامام كثير المال فينفق عن سعة ولكنه روى أن الرسول أعطى للحجام دينارا فليفعل مافعل الرسول .. لم يكن عجيبا أن يمتنع عن الجلوس للحديث حتى يبلغ الأربعين لأنها سن التبليغ والهداية واذا كان الشافعى وأبو حنيفة وأضرابهما قد جلسوا للتدريس قبل هذه السن فما يفيده ذلك فى شىء لأنه يقتدى بالرسول !! وقد بلغ رسالة ربه بعد الأربعين !!

وفى محنته العصيبة يوم ان انهالت على جسده الناحل سياط الظالمين تحرق بدنه وتشوى ظهره كان محمد صلى الله عليه وسلم عزاءه وسلواه فقد احتفظ بثلاث شعرات تأكد أنها من شعر الرسول فضمها الى ثوبه واعتقد أنه سيلقى الله فى محنته وسيكون هذا

الأثر العزيز شفيعه حين يقدم على خالقه !! ثم انتهى العذاب وعاشت النفس الهادئة المطمئنة فماذا صنعت بالشعرات الثلاث ؟

لقد كتب الامام فى وصيته الأخيرة راغبا أن توضع شعرة فى عينه اليمنى ، وثانية فى عينه اليسرى وثالثة فى فمه ثم يحمل الى مضجعه مدججا بسلاح لايفل .. ومثريا بكنز لا يفنى وذلك الكنز الثمين هو شعرات رسول الله !!

ليت شعرى اذا لم يكن هذا حبا خالصا فأين الحب الأكيد ؟ واذا لم يكن فى ذلك ثقة تامة بمحمد فأين تكون الثقة ؟

ان علماء التحليل يجعلون من الرموز البعيدة دلائل كاشفة لمعنى قريب فهل يكون فى دنيا الوله والكلف رمز أبلغ من شعرات ثلاث يقدسها كلف عميد ؟.

ثم ماحاجته الى الخضاب ؟ وهو عالم يرى ان الشيب فى الاسلام تاج وضىء لاتبلغ منزلته التيجان ؟ !! لقد اختضب رسول الله فى الثالثة والستين فلا مناص من أن يحتذيه وحبذا الخضاب ان فعله محمد فهو شىء حبيب !!!

هكذا كان أحمد وما أحسن ما كان !

ان الذى يدقق فى التزام هذه الهينات اليسيرة من المحسات لابد أن يدقق فى التزام كل رائع جليل من المعنويات ، وقد كانت أخلاق أحمد محاكاة متواضعة لاخلاق الرسول وكيف لايحاكيهوهو يروى عنه (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فوق أنه يحفظ قول الله وانك لعلى خلق عظيم .

جاء فى تاريخ الذهبى عن أحد أصحاب أحمد فى وصف مجالسه: لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله كان مائلا اليهم مقصرا عن الدنيا وكان فيه حلم ولم يكن بالعجول ، بل كان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار واذا جلس مجلسه بعد العصر

لايتكلم حتى يسأل ، واذا خرج من مجلسه لم يتصدر بل يقعد حيث انتهى به المجلس (١) وتلك بعض شمائل رسول الله ٠

على أننا لا نلتمس هذه الشمائل فى تزكية صديق ، أو رواية محب ولكننا نلتمسها فى وقائع مشهورة لا سبيل الى انكارها بحال ، وهى بواقعها الصادق أرجح فى الدلالة على عنصر صاحبها من كل تزكية تقال :

لقد رهن عينا له فى دين عليه وحين استطاع وفاء الدين ذهب الى الدائن فوفاه دينه ولما أراد أن يرد اليه رهنه التبس بنظير مشابه له لا يكاد يفترق عنه فى شىء فعرض العينين على أحمد ليختار ما يشاء !! ولكن الامام يحتاط فيرفض أن يأخذ شيئا لا يتأكد من ملكيته ويترك العينين لدى الدائن ! أليس هذا السلوك المتحرز سيرا على منهج الرسول وعبقا من روضه الفواح ؟ !

وثانية تقال ولن نجد مثيلها فى دنيا الناس وان طال الفحص تاريخا بعد تاريخ ، وأمة وراء أمة حتى لتعد من الغرائب النادرات

قال أبو بكر الخلال : (أخبرنى احمد بن عثر قال لما ماتت زوجة أحمد قال لامرأة عندهم اذهبى الى فلانة ابنة عمى فاخطبيها لى من نفسها ، قالت فأتيتها فأجابته فلما رجعت اليه قال أكانت أختها تسمع كلامك وكانت بعين واحدة ؟ فقالت له نعم قال : اذهبى فاخطبى تلك التى بعين واحدة فأتيتها فأجابته وهى أم ولده عبد الله)٠

فهل ترى أغرب من ذلك وأندر ، رجل يتقدم الى خطبة فتاة ، جميلة كاملة صبيحة فتجيبه الى طلبه برغبة واعجاب ثم يعلم أن لها أختادميمة عوراء وقد سمعت حديث الخطبة فما نطقت بشىء فيقول فى نفسه : ماشعور هذه الشوهاء ؟ وأى أسف تضرم فى جوانحها دون أن تجد له اطفاء يتاح !! ان عليه أن يغفل رغبته فى الجمال والحسن لينقذ حزينة أليمة حاربها القدر بأوجع سلاح !! ثم يتقدم الى

---

(١) ترجمة أحمد الذهبى بتحقيق الاستاذ شاكر ص ٣٥

العوراء فيرد لها اعتبارها راضى النفس قرير الفؤاد !! أليست هـذه بعض شمائل النبوة دون نزاع ، يقول الاستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعى (١) معللا ما نحن بسبيله من عجب واعجاب (هناك ذاتان لكل مؤمن ، احداهما غائبة عنه والأخرى حاضرة فيه وهو انما يصل من هذه الى تلك فلا ينبغى أن يحصر السماوية الواسعة فى هذه الترابية الضيقة ، والقبح انما هو لفظ ترابى يشار به الى صورة وقع فيها من التشويه مثل معانى التراب والصـورة فانية زائلة ولكن عملهـا باق وبهذا الكمال فى النفس وهذا الأدب قد ينظر الرجـل الفاضـل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة لا الى الشـوهاء ولكن الى الحـور العين ، انها فى رأى العين رجل وامرأة فى صورتين متنافرتين جمـالا وقبحا أما فى الحقيقة والعمـل وكمال الايمان الروحى فهما ارادتان متحدتان تجذب احداهما الأخرى جاذبية عشق ولذلك اختـار الامام أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة فسأل من أعقل؟ فقيل العـوراء فقال زوجنى اياها ، فكانت العـوراء فى رأى الامام وارادته هى ذات العينين الكحيلتين) .

وقد أضاف الأستاذ الرافعى الى مارواه أبو بكر الخـلال أن الامام سأل عن أعقل الاختين واختارها ولم نرذلك فيماقرأناه فلابدأن يكون الرافعى قد قرأه حيث لانعلم ، وهو يضيف جديدا الى ميزان الامام وتقديره فهو يثبت اعتزازه بالعقل الانسانى والكمال النفسى ، دون نظر الى هيكل متغيرقد يبدو جذابا رائعا فىحين ، ولكنه يرتد الى شحوبه المتضعضع مع الزمان ، ولا يتجه الى ذلك من الناس غير من يتخلق بأخلاق الانبياء .

اترك هذه الحادثة العجيبة وانظر الى بعض ساوكه فماذا تجد ؟

لقد كان الرجل يحب الوحدة ويخلو الى نفسه أياما وأسابيـع والوحدة وحدتان : وحدة فارغةجوفاء تمر بالمعتزل دون أن يقطف منها ثمرة مبتغاة ، وكأنه فى نوم متصل لا يهديه الى خاطر رفيع أو يسعفه

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٦٨

بتأمل لذيذ ومثل هذه الوحدة لا تدوم بل ان صاحبها لينفر منها ان تطاولت به الأيام ، ولا يعمد الى تكرارها فيما يمتد من عمره الباقى اذا لم يستشعر لها فائدة تلمس ، أما الوحدة النافعة الهادية فهى ذات التأمل والتدبير وقد كان الأنبياء والمرسلون يخلون الى أنفسهم ليالى وأياما ويتعبدون الاسابيع ذوات العدد فى بعض المغارات والكهوف فهل كان فرارهم من الناس غير ضرب من التأمل الروحى لا تنغصه الضجة الصاخبة أو يكدوه الزحام المحتشد ؟ بل يظل المتأمل متصل السبحات بعاليه يسلط أشعة فكره على ماحوله فيزداد معرفة ويرق شعورا ويعمر ايمانا ، قال عبد الله (١) بن أحمد (كان أبى أصبر الناس على الوحدة لم يره أحد الا فى مجلس أو فى حضور جنازة أو عيادة مريض وكان يكره المشى فى الأسواق وقال : خرج أبى الى طرسوس ماشيا وخرج الى اليمن ماشيا وحج خمس حجج ثلاثا منها ماشيا ولا يمكن لأحد أن يقول انه وجد أبى فى هذه النواحى يوما ما الا اذا خرج لصلاة الجمعة ! ثم يعقد موازنة بين والده والصوفى شعورا ويعمر ايمانا ، قال عبد الله (١) بن أحمد (كان أبى أصبر الناس على الوحدة وبشر رحمه الله فيما كان فيه لم يكن يصبر على الوحدة فكان يخرج الى ذا ساعة والى ذا ساعة !) ونحن لا نلزم الناس بالانفراد فى زمن سريع تزدحم به الأعمال وتتكاثر الضروريات فالاسلام دين عمل وكفاح ، ولم يدع أحمد للعزلة فى يوم ما كما دعا اليها المتصوفون من الغلاة ولكننا نقول ان رجل الفكر وحده بحاجة ماسة الى الانفراد الوقتى ليجمع خواطره ، ويرصد تأملاته ، واذا تحققت مآربه فى العزلة ترك وحدته وانصرف الى قومه يهديهم سواء السبيل ، وأحمد من رجال الفكر فى الاسلام له مذهبه الفقهى وسلوكه النبوى فلا عجب اذا انفرد عن الناس ليالى وأياما منصرفا الى تأملاته وعباداته وتلاوته فذلك خير عميم !!!

على أن الرواة يذكرون أن أحمد رضى الله عنه كان يصلى كل

---

(١) حلية الاولياء ص ١٨٣ جـ ٩ .

يوم قبل المحنة ثلثمائة ركعة فلما ضعف بدنه من العذاب ووهنت صحته من الكبر جعل يصلى كل يوم مائة وخمسين ركعة وكان يختم تلاوة القرآن مرة كل سبعة أيام !! ذلك ما يكون أثناء اتصاله بأهله وتلاميذه ومريديه ، فاذا انفرد الى نفسه فلا بد آنه فى عزلته المؤمنة يضاعف ما اعتاده بين الناس ونحن لا نرى عزلة موحشة لمصل يقوم وقارىء يتأمل !!!

ومما يتصل بوحدته ونراه قرينا لها فى الهدف والثمرة حبه للظلام وترحيبه المفرط بسكون الليل وهدوئه وهو يقول فى ذلك : (الظلمة أجلى للقلب) وذلك ان امتداد الطرف فى سواد متصل يحجب الأشياء والشخوص يتيح للفكر أن يواصل سبحاته دون عائق ، وللقلب أن يستشف بوادره فى هدوء شامل ، ومن هنا كان الامام الشافعى والامام البخارى معا يستلقيان فى أثناء الليل فى هدأة الظلام ثم يستعرضان بعقولهما ما قرآه ووعياه أثناء النهار فاذا احتاجا لبعض التذكرة أوقدا المصباح لحظة وراجعا الأوراق ثم أطفآه وسبحا فى تأملاتهما العلمية والسكون ممتد ، والظلام متصل ، قال أبو محمد بن أخت الشافعى عن أمه قالت ..... ربما قدمنا فى ليلة واحدة ثلاثين مرة المصباح بين يدى الشافعى وكان يستلقى ويتذكر ثم ينادى ياجارية ، هلمى مصباحا فتقدمه ويكتب ما يكتب ثم يقول : ارفعيه ، فقيل لأحمد ما أراد برد المصباح ! فقال الظلمة أجلى للقلب (١) ..

ورأى الامام فى الفتوة يمثل اتجاهه وصبره ومغالبته ، فالفتوة قد شغلت كثيرا من الباحثين فى تفسيرها وايضاح معانيها ، واهتم بها الأدباء واللغويون والمؤرخون ، وأكثرهم يحصرها فى شيئين : فى الشجاعة البالغة والكرم المفرط ومن ثم كان الامام على رضى الله عنه فتى الفتيان عند العرب !! وربما ألف أنصار الفتوة من بينهم جماعات تتقاسم الشجاعة والكرم لتبعث هاتين المحمدتين فى العالمين.

---

(١) مفتاح السعاده جـ ٢ ص ٩١

وذلك رائع جميل ولكن احمد بن حنبل لا يحصر الفتـــوة فى هاتين الصـــفتين بل يراها كما نص على ذلـــك « ترك ما تهوى لمـا تخشى » واذن فالفتوة فى رأى الامام تتجــه أول ماتتجه الى مغالبــة النفس ومجالدة الشــيطان فأحمد يعــرف الصراع الدائم فى أطــواء النفس البشرية بين الفضـــيلة والرذيلة ويلمس أثر هذه الحرب الضروس فى النفس المترددة المتذبذبة التى لا تستقر على منهج فآونة تستجيب الى هواتف الخير فتنزع الى الكمال وآونة ترتكن فى بؤرة الشر فتقول يا ويلتا على ما فرطت فى جنب الله ، وبين الارتقـــاء والهبوط فى عــراك لاينقطع وتأنيب لايريم !! والانسان فريسة سهلة لهذا النزاع الرهيب فالفتى كل الفتى فى رأى أحمد من يقهر أهواءه وينتصر على نزواته ، فترك مايهــوى على لذته لمـــا يخشى ويرهب !! وتلك هى الفتـــوة الشماء ...

وأحمد فى رأيه ينزع مع الصوفية عن قوس واحدة فقـــد قال الجنيد رضى الله عنه : ان الفتوة هى أن تكسر الصنم الذى بينك وبين الله تعالى وهو نفسك وقال محمد بن على الترمذى : الفتوة أن تكون لربك على نفسك « ولدينا أقوال كثيرة تتخذ هذا النحو الخلقى فى تهذيب النفس وخشية الله !! وكلها تصدر عن نبع واحد هو كتاب الله » .

لقد كان أحمد امام السنة اذ حفظها من الضـــــياع ونهض بتعاليمها خير نهوض وكان له فى صاحبها الأعظم قدوة حسنة فآثر هديه واتبع طريقه !! ومن ثم فقد بجله المسلمون وعظموه ووصفوه بالامام ...

مصباح يضيء

لو مددت يديك الى كتاب ألف فى هذا العصر ودرسته دراسة فاحصة فانك تقف على روح مؤلفه ، وتعرف بنابيع ثقافتـــه ولو لم تحط خبرا بأنبائه فقد أبانت لك كتابته مذهبه واتجاهه ولاعليك بعد ذلك أن تعرف أنه نشأ فى مدرسة معينة وتثقف بثقافة خاصة ، وسافر الى بعثة شمالية أو جنوبية !! كل ذلك قد وضـــح فى تأليفه ، ونن تزيدك معرفته احاطة بالرجل فآثاره أوضح دليل وأتم تعريف •

كذاك يكفى أن تمد يديك الى آثار أحمد وأن تدرسها دراسة فاحصة فستعلم مذهبه العلمى وتستشف عنــاصر تكوينــه وروافد فقهه !! ثم تضعه فى مكانه الطبيعى بين أرباب المذاهب والتأليف دون حاجة الى جهد شاق يصل بك الى أستاذ معين ومدرسة خاصة • فقد عرفت ذلك من أصدق خبر ، وأخلص دليل •

ولا نعنى بذلك أن حيــاة الامام الدراســية فى نشأته الأولى مجهولة الأنباء ، خافية الطريق فقد عكف تلاميذه على تدوين أخباره وذكروا عددا موفورا من أساتذته وشـــيوخه !! وأطالوا فى تعـــداد مواقفه ومناحيــه ، وكل ذلك نافع مفيــد ، ولكن من يدرس آثار الرجل يستطيع بها وحدها أن يتعرفه تعرفا صادقا ولا سيما أنه ظهــر فى عصر متنوع الثقافة مختلف المشارب ، وتحــديد اتجاهه فى هــذا العصر ضرورى لمن يريد أن يرسم خطوط حيــاته رسما يبرز الملامح المميزة وان أخفى السمات المشتركة كما نريد فى هذا النطاق !!!

لقد كان العصر العباسى لعهد أحمد مزدحما بشـــتى الثقافات الداخلية والخارجية فالمترجمات اليونانية قد شقت طريقها الى عقول الباحثين والقارئين والقصص الهنــدى قد وجــد مكانه فى نفــوس

الراغبين والدارسين والأدب الفارسى قد استعان بجاه الدولة وسطوة الرؤساء على أن يتبوأ مقعدا عزيزا بين الآداب المختلفة للأمم من شرق وغرب ، وشيوخ العرب وفقهاء الاسلام لا يألون جهدا فى انماء ذخيرتهم الغالية وصيانتها ان تتغلب عليها ثقافة أجنبية فتزيحها عما تنشد من السيطرة والاستعلاء ..

ولكل فريق أساتذة وكتب ومناظرات ومجالس . فالى أى مورد اتجه أحمد وفى أى ميدان جلى وبرز حتى أصبح امام الكثرة الكاثرة من الناس فى عصره دون مراء ؟

ان الذين يقرءون مسنده ويروون فقهه يعرفون أنه كان بمعزل عن كل دخيل من الثقافة فلم يلم بقدر مما تطلع اليه معاصروه من الفلسفة والمنطق ، وقد كان علماء الكلام وهم حماة العقيدة وذادة الدين ، يدرسون الفلسفة وطرق الجدل ليتخذوا منه سلاحا لا يفل فى مقارعة الخصوم ومنازلة الملاحدة !! فلم ير أحمد أن يسير معهم فى طريق ، بل عكف على الكتاب والسنة وآثار السلف وفى هذه الدائرة جلى وبرز ، وأينع غرسه أكمل ايناع .

وفى الفصل السابق ذكرنا أثر الحديث وصاحبه فى توجيه أحمد وفى تكوينه فقد انتفع الامام أعظم انتفاع بما حفظ من الأثر وعلم من السيرة وجعل ذلك فى المرتبة الأولى بعد كتاب الله ، ثم اتجه الى آثار الصحابة وسيرهم فكانت موردا آخر لثقافته واتجاهه ، فدرس سيرة كل صحابى ، ووقف على آرائه وفتاويه ، ان كان ممن يروى لهم نصيب من العلم والافتاء وجعل ذلك فى المرتبة الثانية بعد السيرة والحديث !! ثم اتجه الى التابعين فدرس أقوالهم وعرف مواقفهم وكان لهم فى فقهه أثر واضح ، وفى سلوكه توجيه الاحتذاء والقدوة حتى وصفه عارفوه فقالوا عنه انه تابعى تخلف به الزمن ثم اتجه الى الخيرة من فقهاء الأمة الاسلامية فيما يلى التابعين فتخير من آرائهم ماوافق مزاجه وسار مع مشربه !! وهؤلاء ومن سبقهم هم شيوخ أحمد وأساتذته بهداهم اقتدى وفى طريقهم سار ...

على اننا نخص بالذكر معاصرا كريما كان له فى توجيه أحمد شأن أى شأن ، ذلكم هو الامام الشافعى رضى الله عنه !! حتى عد بعض الفقهاء أحمد شافعى المذهب وذكره بين الشافعية فى كتب الطبقات !! والحق أن تقدير الشافعى لأحمد واعجاب أحمد بالشافعى كان مما اشتهر وذاع وبرغم ذلك نجد أقوالا مكذوبة يرويها أصحاب المناقب عن الشافعى فى أحمد ، وأخرى مدخولة يرويها قوم آخرون عن أحمد فى الشافعى وكأن كلا الأمامين لا يقدر صاحبه ولا يعتز بأخيه !!!

ان مبعث ذلك الدس البغيض •• هم رواة المناقب ومتعصبو المذاهب فقد وقر لدى بعض المتزمتين أن مذهبهم وحده الصحيح وأن المذاهب الأخرى افك وافتراء لا تستند الى شرع ولا تعتصم بسنة وكتاب فأطلقوا ألسنتهم ــ جهلا وضيق أفق ــ فى أصحابها وزادوا فاخترعوا لكل امام ينتمون له من الخوارق والكرامات ما لا يصدقه العقل وليتهم وقفوا عند ذلك بل قولوا كل امام ما لم يقل فنسبوا لمالك قولا جارحا فى أبى حنيفة ، ونسبوا للشافعى قولا غير صائب فى أحمد •••• وكل ذلك افتراء بغيض ساق اليه التعصب المقيت ، واذا كان بعض هؤلاء قد وضع الأحاديث المكذوبة عن محمد أفلا يستبيح أن يضع أفكا على لسان امام ؟!

على أن الثقاة من الرواة ينقلون كل حق صريح لا يأتيه الباطل ، فهم يذكرون أن الشافعى كان اذا قال حدثنى الثقة انصرف القول لأحمد ، وأنه رشحه لقضاء اليمن حبا لذاته ، واحتراما لشخصه ، وانه قال خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه ولا أروع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد ، كما ينقلون عن أحمد انه قال ان الله عزوجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها ، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى وأرجو ان يكون الشافعى على رأس المائة الثانية فهل يعقل أن يقول بعد ذلك كما جاء فى الحلية (استفاد منا الشافعى مالم نستفد منه) ؟ (١) وغير ذلك كثير نضرب عنه •

---

(١) ج ٩ ص ١٧٠

ان من يدرس أخلاق أحمد لايجرؤ أن ينسب اليه هذا القول الخطير . لقد كان الامام يتواضع مع تلاميذه فكيف يتشامخ على أستاذه ؟! واذا كان قد ترفع عن أن يسب أحمد بن أبى دؤاد عدوه وصاحب تعذيبه فكيف ينسب اليه سب صريح للشافعى أو لأبى حنيفة كما حدثتنا بعض الروايات المزعومة ؟!

قد يجوز القول بأن أحمد عارض كثيرا من آراء أبى حنيفة ولكن كم بين الرأى والشخص من فروق ، وأحمد بعد ذلك امام العلماء ، والعلماء ورثة الأنبياء .

لقد كان أحمد تلميذ الشافعى وقد استفاد منه استفادة ذات أثر واضح فى فقهه وتكوينه فالشافعى واضع أصول الفقه ، وأول من نقل الكلام من الجزئيات المتباعدة الى الكليات العامة ، وأول من رسم طرق الاستنباط الفقهى ، وحكى قواعد التعليل وأسباب الترجيح فأثره فى الفقه ، كأثر الخليل فى العروض وكل فقيه جاء بعده قد تأثر به واستلهم آراءه وأفكاره وأحمد فى طليعة هؤلاء .

كان أحمد قد التقى بالشافعى فى مكة وتدراسا بعض الامور الفقهية فأعجب بأستاذه وأكبر مقامه ورآه جديرا أن يحتل المكانة الأولى فى الدوائر العلمية لا بمكة فقط بل فى بغداد عاصمة الاسلام، ثم رجع ابن حنبل الى مدينة السلام ليرى فقهاء الرأى فى مدرسة أبى حنيفة يملئونها تعليلا وافتراضا فيقيمون أسئلة جدلية لأمور لم تحدث بعد ، ثم يجيبون عنها مستندين الى القياس والتأويل وقد تكون الاجابة غير موافقة لحديث يرويه أحمد ويعده أصحاب الرأى ضعيفا لا يؤخذ به ، مما ضاق به ذرع الامام صاحب المسند وكثيرا ما كان يخلو الى نفسه فيفكر فى مدرسة الرأى التى انتشرت هذا الانتشار ببغداد وتبوأ رجالها مناصب القضاء والافتاء فأصبح أمر المسلمين فى أيديهم يحلون ويحرمون كما يهديهم قياسهم واستنباطهم ، ولعله كان يقول ماذا أظن بهؤلاء ؟ .. أعلى حق هم أم على غير صواب !!! انهم يقيسون الشىء لا نعلمه بالشىء نعلمه وقد تكون

وجوه القيــاس غــير مطابقــة تمام المطابقة فتبعث الهـــواجس فى نفس الفقيه المتشدد الصارم الذى لا يحيد قيد شعرة عن نص يرويه أوحكم سمع به من فقيه كبير .. مهما يكن من شىء لقد استخار الله وأقدم على كتب الرأى يتدارسها كما يتدارسها الناس واستمع الى مجالس أبى يوسف ومحمــد بن الحسن وغــيرهما من كبار الأعــلام فى فقه أبى حنيفة .. ومع هذه الدراسة لوجوه القياس ومسائل الخــلاف فان نفسه تنأى به عما يقرأ ويعلم ، ويحس ان توهين النص وتضعيفه لأمر ما مجازفة خطيرة لايجوز أن يتعمدها بحال وفى هذا القلق الساهد جاء الشافعى الى بغداد وقد شهر سلاحه وأخذ عدته فناظر علماء الرأى وانتصر لمدرســة الحديث انتصارا رفع من شأنها وأعاد لها مكانتهــا المحترمة فى مدينة السلام ...

قال الاستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق فى كتابه عن الشافعى(١) كان طبيعيا أن يجادل الشافعى عن أســتاذه (مالك صاحب مدرســة الحــديث) وقد نهض لذلــك قويا بعقله قويا بعلمه ، قويا بفصاحتــه قويا بشبابه فى عنفوان وحمية عربيــة ، وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعى عن مالك ومذهبه عن محمد بن الحكم قال : ســـمعت الشافعى يقول: قال لى محمد بن الحسن :صاحبنا أعلم من صاحبكم ـ يعنى أباحنيفة ومالكا ـ وما كان على صاحبكم أن يتكلم وما كان لصاحبنا أن يسكت .. قال فغضبت وقلت نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أو أبو حنيفة ؟ قال : مالك لكن صاحبنا أقيس فقلت : نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه من أبى حنيفة فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام) .

هذه صورة تمثل وجهتى نظر مختلفتين ولسنا نعنى ان جميــع المناظرات كانت موازنة شخصية بين امامين كما فى المثــال الســابق ولكنها فى أكثرها موازنة بين رأيى امامين فى مسألة جزئية من مسائل

---

(١) ص ٥٤ من سلسله أعلام الاسلام

الفقه !! وقد تكفل الشافعى بنصرة مالك فى العـــراق فاتجه اليه أحمـــد ورآه أولى الناس بمذاكرته وتوجيهه قال أحمد : ما أحـــد من أصحاب الحديث حمل محبرة الا وللشافعى منة عليه ، فقيل له .. كيف ذلك : قال ان أصحاب الرأى كانوا يهزءون بأصحاب الحديث حتى علمهـــم الشافعى وأقام الحجة عليهم وقال هو أعلم الناس فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه (الرازى ٣٥) وأحمد لايقول عن غير اعتقـــاد مؤمن ، فهو يرى المجاملة معيبة فى العلم ويرى شهادة الحق فى الفقيه أمانة ترد ، وحقا يعلن ويذاع ، وهكذا ... انعقدت أواصر المحبـــة بين الرجلين انعقـــادا لم يفصله المـــوت اذ ظل ابن حنبل يترحم عـــلى الشافعى ويذكر أيامه المثمرة كما يذكر الأحلام الوضـــيئة ذهبت ولن تعود !!!

على أن الاستاذ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ذكر فى كتابه عن الشافعى ص ٥٧ ان ابن حنبل كان من كبار أهل الرأى قبل قدوم الشـــافعى الى بغـــداد ثم ترك مذهبـــه واتجه الى الحـــديث متأثرا بالشافعى ! ونعتقد أن هذا سبق قلم فقط ، فأحمد بطبيعته لم يكن من كبار أهـــل الرأى ، ولكنه درس المـــذهب القيـــاسى فى مجالس أبى يوسف فلم يســـترح اليه اذ لا يلائم تكوينـــه الذهنى ومشربه النفسى ، فحين قدم الشافعى وظاهر أصحاب الحديث انجذب اليـــه أحمد عن هوى صاف واعتقاد آكيد .

ويمكننا أن تقول فى ايجاز ان أهـــل الرأى يعيبون اصـــحاب الحديث بالاكثار من الروايات دون تفهـــم صائب ، أو تأمل فاحص مع عجز عن النظر وكراهية متعصبة للجدل ، أما أصحاب الحـــديث فيعيبون أهل الرأى بالأخذ بالظن ، والتوسع فى الرأى وتقديم القياس على خبر الواحد ورفض الأحاديث المرسلة والمجهـــولة !! وحين جاء الشافعى سلك مسلك الجدل فى الدفاع عن الحديث فانتصر لقـــوم ضعفاء !!

لقد تجلى أحمد ـ فيما تقدم ـ محافظا كل المحافظـــة متشددا كل

التشدد ، ولابد من كلمة تقـال تعليقـا على مسـلكه دون تحيز الى انتقاص !! فنحن نرى أن كل عصر من العصور لا يخلو من متحررين يحاولون الوثب السريع فى مضمار التجديد !! ومن محافظين يلتفتون الى الوراء قليلا ويحاولون أن يكبحوا جماح الواثب المتسرع ووجود أولئك وهؤلاء ضرورة لازمة فاذا أفرط المتحررون فى توثبهم الطـائر وجدوا من ينادى بالتؤدة والاطمئنـان واذا لزم المحـافظون مكانهم القديم رأوا من يأخذ بيدهم الى الأمام .. وهكذا كان وجود أحمـد وشيعته ضرورة ملحة لا تقل فى لزومها عن وجود مدرسة أبى حنيفة . وكان وجود الشافعى بين أولئك وهؤلاء عدلا منصـفا ، أقام الميزان ومنع الميل والجموح ....

ولقد ساعد على ارتباط الشافعى بأحمد هذا الارتباط الأخوى الحبيب ما رآه كل من الرجلين فى صاحبه فأحمد بحـر من الحـديث لا ينضب ، صبر وثابر حتى جمع من آثار رسول الله ، ما لم يتهيـأ لغيره الا فى النادر القليل ، والشافعى محتاج لمن يروى له الحـديث فى فتوى عارضة أو حكم طارىء ومن له فى بغداد غير أحمد ؟ وأحمـد كان يروى الحديث ثم يأخذ منه الحكم الفقهى دون أن يتعدى ذلك الى استنباط ، فلما اتصل بالشافعى عرف منه ما يجهل ، ووقف بازائه أمام عالم جديد قد انكشفت حجبه عن آفاق فسيحة مديدة فتعلم من واضع أصول الفقه ضوابط الفهم الصـحيح للكتاب والمقـابلة بين الأصول واشتقاق الفروع ومعرفة الناسخ والمنسوخ والخاص والعام، والمطلق والمقيد ، وبذلك صار أحمد المحدث فقيها له مذهبه ، واماما صاحب منهج واتجاه !!! ففضل الشافعى على أحمد فضل الأسـتاذ على التلميذ ..

لقد كان الشافعى مصباحا يضىء ! وقد أنار للرجل الطريق .. ونحن لانقصر أحمد على الشافعى وحده ؟ فذلك مالايمكن أن يكون ؟ ولكننا نعده أكبر الأساتذة تأثيرا فيه ؟ وأعمقهم تغلغلا فى نفسه وعقله .. ونعترف لغيره من الشيوخ بفضل التربية والتلقين فقد روى عن كبار رجال الأحاديث فى

عصره ؛ وكلهم ورع تقى يخشى مقام ربه كما تحدث فى مجلسه عن فضل ابن المبارك هيثم وسفيان ومالك ممن شاهد ومن لم يشاهد فهؤلاء جميعا قدموا الزاد الهنيء للعقل الغض فأشرق بذكائه ، وتألق بمعارفه ، ولسنا نجد فى تاريخ العلماء تلميذا عكف على فرد واحد واقتصر على الأخذ منه بل أن الذين يؤثرون ملازمة أستاذ معين لا يتعدون عنه فى ظاهر الأمر الى غيره يخطئون ايضاح نفوسهم فهم يجهلون أنهم يتأثرون بما يصل اليهم ولو لم يتعمدوا الاستفادة والتحصيل فالعلم ماء تشربه النفس كما تشرب الأرض مايقع عليها من غيث ؛ شعرت به أم لم تشعر فهو يؤدى دوره وينهض بواجبه أكمل نهوض ..

ولو تركنا الناحية العلمية جانبا ونظرنا الى ناحية السلوك الخلقى فاننا نجزم جزما أكيدا بتأثر أحمد رضى الله عنه بسلوك الأئمة من الفقهاء فى الثبات على الحق ومجابهة الباطل الصريح .

فالرجل فى محنته القاسية كان ينظر الى سلف صالح صدقوا ماعاهدوا الله عليه فرضى عنهم ورضوا عنه .. وانك لتجد فى تاريخ علماء الاسلام غرائب وعجائب فى مجابهة الطغيان والثقة بالله والاستهانة بالعذاب وتكاد تعدها من الأساطير البعيدة لولا أن الرواة يتناقلونها فى تواتر متصل لاتحيق به الشكوك .. وكل ذلك تواتر متصلا الى أحمد ووقف طويلا عنده ؛ فتحمل محنته راضيا صابرا ، وكان بثباته الرائع حلقة ثمينة فى سلسلة ذهبية من قادة الرأى وأبطال النضال ..

لقد أتاه حديث سعيد بن جبير فقيه الكوفة وسيد التابعين .. حين جابه طغيان الحجاج فى جبروته فيقول له الطاغية أنت شقى بن كسير لا سعيد بن جبير ، فيرد عليه .. أبى كان أعلم باسمى منك ، واذ ذاك يتضايق الحجاج فيصيح فى تبرم وغيظ لقد شقيت وشقى أبوك ويظن أنه بذلك قد قطع الرد عليه ولكنه يسمعه يجيب.. الغيب انما يعلمه غيرك فيستشرى غيظه ويصيح لأبدلنك بالدنيا نارا تتلظى » فيقول سعيد فى هدوء .. لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت الها غيرك» ثم يسير الى مصرعه مستشهدا فى سبيل الله ..

لقد أتاه حديث سعيد بن المسيب فقيه المدينة حين يأتيه عامل عبد الملك

فيأمره بالبيعة للوليد فيمتنع •• فيهدده بضرب عنقه فما يتراجع ، ثم يضربه خمسين سوطا ويطوف به مع الرعاع فى أسواق المدينة وهم يقولون •• هذا موقف الخزى ، فيرد عليهم فى يقين جازم •• بل من الخزى فرارنا يوم القيامة بما فعلتموه وفعلناه ••

لقد أتاه حديث أبى حنيفـــة حين ضربه ابن هبيرة عامل الأمويين بالسوط لتولى قضاء العراق ، فأبى أن يكون كرة فى أيدى الطغاة ثم أراده المنصور كذلك فامتنع وضرب وحبس ومات فى الحبس واثقا من رضوان الله وعدالة السماء ••

لقد أتاه حديث مالك بن أنس حين جابه أبا جعفر المنصور وأفتى بأن طلاق المكره لايقع ، وكان الخليفة يريد البيعة لابنه فجمع الناس وأجبرهم على الحلف بالطلاق وأفتاهم مالك صريحا بعدم الوقوع فضرب بالســـياط وما تراجع فى قليل أو كثير •• يا لله ! سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من أئمة الفقهاء يقفون من الطغيان مواقف جريئة تصل فى بعضها الا الاستشهاد وفى بعضها الآخـــر الى السياط والحبس والارهاق •• ثم يحجم ابن حنبل عن واجب السلف فى ازهاق البـــاطل واحقاق الحق ، وليس بأقلهم ايمانا ، ولا بأضعفهم حديثا ورواية ! ان دماءه لتدعوه الى التضحية والبسالة ، وان القدوة الصالحة من العلماء والهداة لترسم له طريق الفلاح • وقد سار فيه الى أقصاه ولاقى من الارهاق والعنت ما سنعرضه بعد حين فما ضعف أو استكان •• أجل •• لقد أثر هؤلاء ــ قولا وعملا ــ فى أحمد فكانوا مصابيح تتألق فى حياته ومثلا تنهض أمام من يريد العزة غير وجل أو هياب ، وقد أحسن الائتمام والاقتداء والأسوة •• فكان ــ هو الآخر ــ قدوة صالحة ومثلا لايطمح اليه غير الأفذاذ ••

أمـــــواج

أسائل نفسي لو عاش أحمد في عصر بني أمية دون عصر بني العباس فماذا يكون مجرى حياته ، وهو انسان لا يتدخل في سياسة ولا يرى نصرة حزب على حزب بل يتفرغ خالصا للفقه يدرسه ، وللحديث يرويه.. لو عاش في عصر بني أمية أو في صدر الاسلام لمضت حياته هادئة وادعة كالغدير الساكن تحت الخميلة الناعسة يمضي الى غايته متسلسلا صافيا دون أن يثور به أعصار أو تضطرب به نوازع ثائرة .. يفد اليه الناس في هدوء وغبطة فيرتوون من نميره وينعمون بمرآه .. ولكن الرجل وأسفاه .. تخلف به الزمن حتى عاش في عهد ثائر مضطرم ففي كل حلقة مذهب ، وفي كل مجلس رأى ، وفي كل طريق جدل .. وأحمد بطبيعته عزوف عن كل ما يمت الى اللجاجة والملاحاة ، منصرف عن المناظرة بما تتطلب من منطق وفلسفة وقياس ، ونظر فاذا الاعصار يكتسحه من كل مكان واذا هو مجبر على أن يسأل فيجيب ، وأن يهتف بما يعتقد دون مواربة وتلميح .. حتى وقعت الواقعة وسيق الى العذاب ..

بذلك ندرك أثر المجتمع في الفرد .. فلو نجا انسان ما من شـــواغل بيئته واحداث مجتمعه ، لنجا أحمد بن حنبل دون مراء ، فالرجل انطوائي مسالم عزوف ، ولكن مجتمعه يدعوه الى أن يخوض أمواجه المتلاطمة ثم يغمره العباب عن شمال ويمين فيظل يصارع اللجج المزبدة يصفعه التيار تارة وتضربه الريح تارات ، حتى كان ما لابد أن يكون .. وكما أثر المجتمع في أحمد أثر أحمد في المجتمع فتعصبت له الجموع ، واتبع قوله العـــامة وكثير من الخاصة ، وأصبح رائدا يقول فيسمع ، ويمضي فيتبـع وبذلك أثر الفرد في المجتمع تأثيرا قويا ثائرا واني لأعجب كيف يكون للرجـل الوادع هـــذا التأثير الجبار وذلك الطول البعيد ..

كان العصر العباسي منذ ابتدأ مجالا للثورة واللجاجة .. بل انى لاأعلم عصرا اختلطت به الثورة السياسية بالثورة الدينية اختلاطا متشابكا معقدا كالعصر العباسي، فاذا ثار ثائر من الموارق على الحكومة لم يعلن غضبه للحاكم والدولة فقط ، ولكنه يخرج بمبادىء جديدة تناهض الاسلام وتحـــارب الدين ، ويكون له أنصار ينشرون تعاليمه ويبثون أراءه ، فتصطدم بنصوص القرآن ومقررات الحديث وكما تنهض الدولة بجيوشها وأسلحتها الى منازلة هذا الثائر فى ميدان القتـــال فتهوى السيوف ، كذلك تنهض الدولة بعلمائها وفقهائها فيصول رأى على رأى وينهض لسان الى لسان .. ويعمد المسلمون الى آراء الزنادقة ومرقة الملاحدة فيكشفون بهرجهـــا الزائف ويطمسون باطلها الفاضح واذ ذاك تطمئن عقول تتردد ، وتهدأ قلوب ترجف ..

لقد ثار المقنع الخرساني ثورته المنكرة فى عهد المهدى ، فابتدع آراء سخيفة فى الدين والكون ونادى بالتناسخ مناداة فاضحة ليقول ان روح الله قد حلت فى آدم ثم انتقلت الى نوح ثم الى أبى مسلم ثم الى المقنع نفسه ، واذن فهو رب يعبد .. ويومأ له بالركوع والسجود وأباح للعامة ما يزجرهم عنه الاسلام من منكرات وموبقات فانجذبت اليه قلوب فارغة ؛ ترتكس فى بهيمتها النكراء .. وشاعت آراء الزنديق شيوعا مضى بهـا الى الشرق والغـرب فى مدى قريب وكثر أنصاره ومريدوه ؛ وبعثت اليه الدولة بجيوشها المتلاحمة، فرأت منه خصما عنيدا ، وعدوا ممتنعا يعز مناله .. حتى انتصرت عليه بعد جهـد جاهد وكفاح مرير ؛ وكان لابد من أن يقوم علماء الاسلام بحملة مماثلة تبدد زيغ القول وتهدى الى صراط مستقيم ..

كذلك غلبت دولة الاسلام فاضطر كثير من أرباب الديانات المعاصرة الى اعتناقه والانضواء تحت رايته . ومنهم من أسلم عن هوى صادق وايمان أكيد فكان قوة جديدة تضاف الى هذا الدين العظيم ؛ ومنهم من أظهر الاسلام وأضمر الكفر فاندفع بعد اسلامه الظاهر الى ترديد أقوال المجوسية ؛ ونشر الفلسفة الوثنية ، كيدا مستترا للشريعة ، وضغنا محرقا على الاسلام والمسلمين .. وسارت هذه الأقوال كل مسار فتناقلها غاد عن روائح وأذاعها مسلم غافل عن ملحد زنديق فنشرت ضبابا كثيفا وأقامت حجبا سوداء على العيون والقلوب ؛

وكان لابد لفريق من علماء الاسلام أن يقذفوا بالحق على الباطل لتكون كلمة الله هى العليا ..

أما المترجمات اليونانية عن الوثنية الاغريقية فقد هدر موجها فأصبحت تتدفق فى كل عقل ، وتجرى على كل لسان ، وقد انبهر الناس بمنطق ارسطاليس فلزموا قضاياه وأقيسته ، واتبعوا براهينه وعلله ، واستعان به قوم مغرضون على النيل من مبادىء الاسلام ومثله .. ورآه معشر آخر وسيلة للنباهة والجاه فجعلوه قمة عالية ومثلا مرموقا ، ولكنهم عارضوا به ما ضاقت عقولهم عن فهمه من آراء الدين : فى الله ، والغيب والقدر والجبر والاختيار فكان معولا آخر يهدم فى صرح الايمان .. لسنا نعنى بذلك أن قضايا المنطق فى اضطرادها الحتمى تخالف دينا بنيت قواعده الصحيحة على الحجة والعقل ، فهذا مالا يقره الواقع الصريح ؛ ولكننا نشير الى أناس يلبسون الحق بالباطل فيصطنعون المنطق أصطناعا خادعا .. اذ يرتبون نتيجة زائفة على قضية مريبة ثم يصيحون هذا هو المنطق فأين المجادلون ؟

كل ذلك كان سببا فى الجدل الدينى ودافعا لعلماء الاسلام أن يذودوا عن شريعتهم العزيزة وقد أرهفت لها السيوف واتجهت اليها الضغائن ؛ فنهضت طوائف دينية كثيرة لمحاربة الباطل ووقفت أمام الفلسفة بقواعد الفلسفة وهاجمت المنطق بأساليب المنطق وأظهر هذه الطوائف وضوحا وأعمقها أثرا وتوجيها طائفة المعتزلة بلا نزاع ..

أما فريق السنة فقد كان يكافح ويجاهد ؛ ولكن على طريقته ومذهبه ، اذ أن أكثر هؤلاء – على عهد أحمد – كانوا يميلون الى الأدلة النقلية وحدها فهم يؤمنون بالكتاب والسنة ؛ فاذا اعترض معترض على رأى ؛ ذكروا له قول الله فى ذلك ، وظاهروا الكتاب بالسنة ، فذكروا قول الرسول ثم وقفوا عند ذلك لا يريمون ، والمعارض اللجوج ملحد زنديق لا يؤمن بسنة أو كتاب ، لهذا كان سلاح هذا الفريق واهنا فى اعتقاده ، أما سلاح المعتزلة فقد كان ماضيا صارما يردى ويميت وقد تأثر أهل السنة فيما بعد بطريقة المعتزلة فى الكلام ولجأوا الى البراهين حتى أصبحوا أهل حجاج وتناظر ؛ وأمامك المدرسة الأشعرية فقد استقامت طريقتها فى البحث على هدى من المنطق

والبرهان كما استقامت المعتزلة ، الا أن السبق المقـدور فى ذلـك لأرباب الاعتزال دون نزاع ..

نظر أحمد حوله فماذا وجد .. وجد بونا شاسعا بين مذهبه فى الهداية ومذهب سواه .. فهو يعتمد فى أدلته على الخالق ، وكل مايتصل بالغيب على النظرة الهادية والعاطفة المخلصة ويسلك مسلك القرآن فى ضرب الأمثلة المحسوسة فاذا احتاج الى أن يقنع انسانا بوجود ربه ذكر قوله (فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) واذا سأله رجل عن قصة وجوده وكيفية نشأته ، ذكر له قول الله (فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر) واذا احتاج الى أن يقوى عاطفة السائل بحث عن أمثال هذه الآيات ، فذكر قول الله (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الأرض كيف سطحت فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) ..

فاذا اضطر الى مسائل علم الكلام سلك مسلك القرآن فشرح قول الله «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » أو قوله « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) .

هذه وأمثالها أدلة أحمد وهى لا تحيى العاطفة وحدها ، ولكنها تلجىء العقل الى التفكير ، وتدعو المتأمل الفاحص أن يقطع أشواطا بعيدة فى ميدان التثبت وقد ألف بعض الناس أن يقول عنها انها أدلة نقلية ثم يسكت موهما قارئه أنها لاتساير العقل .. وهذا بهتان أى بهتان ، فالحجة العقلية ناهضة فيما سطر من آيات الكتاب .. ولولا صحتها الأكيدة فى ميزان النظر السليم ما جاءت فى كتاب الله غير أن هناك فرقا واضحا بينها وبين براهين المنطق وأدلة الاعتزال ، فالقرآن لا يسطر حجته فى مقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة ، ولا يهتم بالأشكال والأقيسة ، ولا يحفل بألفاظ الفلاسفة من عرض وجوهر وكم..وكيف ومتى..وأين..بل يسير مع المنطق البديهى المسلم به لدى المتأمل الحصيف ولم لايكون كذلك ولم يجعله الله مقصورا على الفلاسفة والمنطقيين بل ان هدايته الساطعة تشرق فى قلب الأمى الساذج

كما تسطع فى عقل المتفلسف المنصف •• وحسبه أن يسلك مسلكا وسطا يكون فيه تبصرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع ••

عشق أحمد نصوص القرآن واقتنع بأدلته الواضحة فى ميدان الجدل وظن أن السلامة كل السلامة فيما يتمسك به من نصوص •• ولكنه يفاجأ بأقوال كثيرة يزدحم بها عصره وآراء متضاربة يتناقلها علماء الكلام من ناحية، وارباب الفلسفة من ناحية ويتفرس فى مسائل النزاع وموجبات الخلاف فيرى عقله فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه سحاب •• فهؤلاء رجال المعتزلة ينقسمون فيما بينهم الى أكثر من ثلاث عشرة فرقة، ولكل فرقة خلافها الطويل ونقاشها المشتجر، وهؤلاء هم الخوارج يتشعبون الى أكثر من عشرين فرقة، وكل طائفة تكفر من عداها من أصحاب المذاهب فى الاسلام وهؤلاء هم المرجئة ولهم أحزابهم وشيعتهم أيضا ، وهؤلاء هم الشيعة ، وهم فى كثرتهم وافتراقهم وتطاحنهم بحيث لايرجى لديهم وفاق •• وجميع أولئك مسلمون يؤلفون الحجج ويأخذون من الكتاب والسنة ما يوافق طريقهم الخاص حتى أصبحت آيات القرآن ، لدى من يستشهد بها من أولئك وهؤلاء مثار التأويل والتعليل والتناقض الموهوم ، وأحمد يرى ذلك ويسمع فى غيظ فيعلم أن الجدل أساس كل شر وأن اللجاجة فى علم الكلام قد أفسدت أكثر مما أصلحت •• لذلك يحذر من هؤلاء ويدعو الى التمسك بمذهب السلف الصالح ، والسير على هدى الصحابة والتابعين ومجانبة الفلسفة والمنطق النظرى •• ويرى ذلك مذهب أهل الحق ومن تبعهم باحسان ••

لذلك نشاهد للرجل أقوالا كثيرة فى ذم الجدل والمجادلين ، قال الخلال •• عن عبدوس بن مالك العطار •• سمعت أحمد بن حنبل يقول أصول السنة عندنا ، التمسك بما كان عليه الصحابة وترك البدع وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهوال وترك المراء والجدل ، وليس فى السنة قياس ولا يضرب لها الأمثال ، ولا تدرك بالعقول ••

وقال ابن حنبل •• سمعت أبا عبد الله يقول (١) من أحب الكلام لم

---

(١) ترجمة الذهبى ص ٣٠ بتحقيق الاستاذ شاكر

يفلح ولن يئول أمره الى خير ، عليكم بالسنة والحديث واياكم والخوض والجدل والمراء ، لقد أدركنا الناس وما يعرفون هذا ..

ويقول .. لست أتكلم الا بماكان من كتاب أو سنة أو عن الصحابةوالتابعين أما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود ..

هذه الأقوال وعشرات من أمثالها تروى عن أحمد .. وتصور شعوره النفسى ازاء الجدل العقلى وضيقه المتبرم بالنقاش الكلامى .. ولكنه يعيش بين النيران الملتهبة ، فلابد أن يحرقه ضرامها المتأجج ولن يستطيع الفرار وهو امام من أئمة الدين وعن يمينه وشماله نقاش فى العقائد .. وحديث عن ذات الله وصفاته ، وتلاميذه يأخذون عليه كل سبيل فيعيدون ويبدءون فيما ازدحمت به المجالس من مجادلات .. حتى فى الطرق والحوانيت وعلى أبواب الدروب فالى أين النجاة .. ؟!

هذا سائل يسأل ما الايمان ؟ أهو معرفة أو عمل ؟ أهـو يزيد أو ينقص ؟ ثم يذكر آراء الأئمة وردود المعتزلة ، ويقذف بالآيات فتقع فى موضعها تارة وتجانبه تارات فماذا يصنع أحمد اذ ذاك ؟ ..

وهذا سائل يسأل عن مرتكب الكبيرة .. أكافر أم مسلم أم منـــافق أم هو فى منزلة بين المنزلتين ؟ وهل سيخلد فى النار أو لاتضر مع الايمان معصية ؟ أفيواصل أحمد صمته وهو امام ؟

وهذا سائل يسأل عن أفعال العباد ويتكلم عن الجبر والاختيار ويخوض فى القدر والقضاء ، ثم يقتطع صدرا من آية ، ويجتزى بعبارة من حديث وكل ذلك يترامى الى أحمد .. فما اتجاهه وما منحاه ؟

وهذا متفلسف يتحدث عن امكان رؤية الله أممكنة بدليل قول الله .. «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» أم ممتنعة بدليل قول الله « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ثم يأتى الى أحمد فهل يعتصم بالســـكون والاطراق ؟ ..

وهذا عنيدلجوج يبحث عن صفات الله فيسأل : هل ينفى صفات المعانى كالقدرة لأنها تكون قديمة فيتعدد القدماء أم يثبت هذه الصـــفات ؟ ثم اذا

ثبتت أفتكون الأفعال التى بالقدرة مخلوقة فالقرآن مخلوق أو تكون غير مخلوقة فالقرآن غير مخلوق .. لأنه قائم بذات الله ؟ فماذا يكون جواب أحمد اذ ذاك ؟ ..

أسئلة عويصة حائرة تصدم تفكير الامام وهو قادر على الاجابة عنها من وجهة نظره ، التى تتقيد بظواهر النصوص ولكنه يرى علماء الكلام يسلكون مسلك المنطق لا النص فيسلسلون حلقات متصلة تمضى بالقارىء الى حيث لا يتأكد ايمان فى رأيه وكم قال فى نفسه : أهذا يتفق وما كان عليه الصحابة والتابعون؟ ثم ينظر فيما حفظ وعلم فلا يجد السلف قد خاض فيما يمعن فيه الخائضون اليوم من جدل وشكوك ، فتزداد كراهيته للمناظرة واللجاج ، ويمنع لسانه أن يثير غبارا يقذى العيون والعقول ولا يجلى القلوب ..غير أن الدولة لاتوافقه على سكوته وامتناعه ، فتوجه اليه من يسأله ثم يحمله الخليفة الى مجلسه فيناظره أساطين الكلام بما لا يألف من البراهين والحجاج .. وتكون المحنة القاسية ، حين يعتصم الامام بظاهر النص فيصب عليه العذاب صبا وتأخذه السياط من كل مكان فيكابد حربا لم يكن من جناتها ، ولكنه يصلى عذابها الأليم ..

ولنا أن نتساءل : أكان فى مصلحة العقيدة الاسلامية أن يحتدم الجدال الفكرى بين علماء الكلام أم أن طريقة السلف وحدها كانت كافية فى العصر العباسى لاقناع العقول وانارة القلوب ، كما كانت كافية لذلك فيما تقدم من العصر الأموى وصدر الاسلام ؟ ذلك السؤال هام يجيب عليه الاستاذ أحمد أمين فيقول فى الجزء الثالث من ضحى الاسلام ص ٢٠٥ .. « لقد أدى المعتزلة للاسلام خدمة لاتقدر فقد جاءت الدولة العباسية تحمى الفرس لأنها قامت على أكتافهم وطارت من على عاتقهم ولكن من مذاهب الفرس ثنويه وتشبيه ، ونحو ذلك ، وفى اعطاء الحرية للفرس خطر فى دخول هذه المذاهب وتسربها الى المسلمين ، وقد قرب العباسيون اليهود والنصارى واستخدموهم فى الطب وغير الطب وكلفوهم الترجمة الى العربية وذلك ما مكن طائفة منهم أن يتسللوا بأديانهم القديمة ، يريدون نشرها ولذلك نجد فى هذا العصر دعاة كثيرين يدعون الى ثنوية الفرس ومانوية الفرس

وبعض تعاليم اليهودية والنصرانية واليهود ، وبعض هؤلاء تستروا بالاسلام وبعضهم دعا دعوته فى علانية ، وأبيح الجدل والمناظرة فى أدق المسائل وأعمقها ولم يكن المحدثون والفقهاء يستطيعون أن يقفوا أمامهم لأن المحدثين وأمثالهم مهرة فى النصوص ، والذى ينكر الاسلام لايقنع بمجرد ذكر آية أو رواية حديث ، انما يريدون دلائل عقلية على وجود الله ، ونبوة محمد وصحة القرآن ، كما يريدون دلائل عقلية على بطلان مذاهبهم ، وكان هؤلاء جميعا من ثنوية ويهود ونصارى ، قد تسلحوا بالفلسفة اليونانية : واستخدموا منطقها فكونوا منه براهين على مذاهبهم فكان لابد لمن يقنعهم ويرد عليهم أن يتسلح بسلاحهم وأن يكون على معرفة تامة بأسرارهم ومذاهبهم ، فيقرع حجة عقلية بحجة عقلية ويحمى المسلمين من هجومهم وبث دعواتهم ، فلم يقم بهذه المهمة ويحمل هذا العبء فى هذا العصر الا المعتزلة فقد نازلوا الوثنية والدهرية وجعلوا قوما منهم يدخلون الاسلام وألفوا الكتب الكثيرة فى الرد عليهم ونازلوا اليهود والنصارى وردوا عليهم .. »

الى أن يقول الأستاذ أحمد أمين ص ٢٠٦ : « لايعلم الا الله ماذا يكون من الشر على المسلمين لو لم يقف المعتزلة هذا الموقف وقت الهجوم على الاسلام بهذه القوة التى هجموا بها بل ان الأسلحة التى تسلح بها المسلمون بعد علماء الكلام على النمط الذى وضعه الأشعرى وحلله ، هى من غير شك وليدة الاعتزال ، وترتيب لآراء المعتزلة وماكانت تكون لولاهم .. »

واذا كان للمعتزلة هذا الفضل كله فى رأى الأستاذ أحمد أمين وسواه من مؤرخى الحياة العقلية فى الاسلام فلماذا وقف منهم الامام أحمد موقف الكراهية والعناد ؟ وكيف حاربهم كما بدأوا فى حربه أيضا حربا جنوا منها الوبال ؟ ..

يخيل الى أن أمر المعتزلة لم يتضح للرأى العام فى عصر أحمد كما اتضح الآن للباحثين فان مرور الزمن قد ساعد على تحلية الحقائق وايضاح الحق ونفى الشبهات ، وقد يعاصر الانسان أناسا فيرى ويشاهد من أعمالهم ما يزنه بميزان خاص ، ثم تنصرم الأيام فاذا رأيه المدون لا يتفق والواقع

فى شيء مع أنه كان صادق القول مخلص النظرة فيما دون وسطر •• اذ أن المعاصرة تحول دون اكتشاف جميع وجهات النظر المتقابلة ، وأعتقد اعتقادا جازما أن الأمام أحمد لو ألم عن يقين واعتقاد بما قام به المعتزلة فى عصره من دفاع وجهاد عن أقدس الآراء الاسلامية لغير موقفه ولكن ظروف مجتمعه من ناحية وطبيعة دراسته من ناحية أخرى أقامتا حائلا بينه وبين خصومه فلم يهتد معهم الى صواب •• ويجب أن نضيف الى ما تقدم سببا آخر فبعض رجال المعتزلة كانوا يسرون بالقول ويسيئون بالعمل فقد تجد منهم اللسن الفصيح والمناضل البارع تسمعه فتسمع الحجة الواضحة وتلمس نفاذ العقل وصدق العارضة وسلامة الدفاع ولكنك تنظر الى سيرته فتجده لايتمثل فرائض الاسلام ولا يصاحب البررة الأخيار ممن يخشون مقام ربهم ويرجون لله وقارا وقد تراه صديقا لبعض الملاحدة من مرقة الزنادقة والامام يحكم على السلوك قبل القول ويزن العمل ميزانا دقيقا فيقدمه على البراعة فى المنطق ، والجهارة فى البيان •• مما نأى به كثيرا عن هؤلاء •

وسبب ثالث ، هو أن بعض رجال الاعتزال قد تخاصموا فيما بينهم تخاصما مريرا ورصد كل فريق لصاحبه أخطاءه ومزالقه ، فوقع بأسهم بينهم وبدت مثالبهم على ضآلتها مكبرة مجوفة ؛ والعامة ممن لا يفهمون طرائقهم فى الجدل والنقاش يضيقون بهم اذ أن الناس أعداء ما يجهلون فاغتنموا ظهور هذه المسالب وساعدوا على اذاعتها بمساعدة تزيدها المبالغة ويحوطها التهويل فنقل عن القوم كثير مما اختلق من الافك واكثرهم نقى برىء وقد وصل للامام عن طريق هؤلاء العامة ما أبرمه وأغضبه •• فخاصم وقاطع ، لأنه رضى الله عنه صريح واضح لايميل الى المواربة والاغضاء •

تلك أسباب ثلاثة نراها سبب الجفوة بين الامام وخصومه من أهل الاعتزال ••• الا أن السبب الرئيسى يتلخص فى اختلاف المنهج وابتعاد الثقافة فالامام يسأل نفسه دائما •• أكان هذا الجدال على عهد رسول الله وصحابته الأخيار ؟ واذا لم يكن ذلك فلا تسامح ولا اتفاق ••

قال الخلال ما ملخصه (١) « كان العباس الهمذانى من أهل السنةوكان يجادل أهل الكلام فقال له أحمد اتق الله ؟ ولا ينبغى أن تنصب نفسك وتشهر بالكلام وبوضع الكتب ولو كان هذا خيرا لتقدمنا فيه الصحابة ولم أر شيئا من هذه الكتب وهى كلها بدعة ... فقال العباس ولكنى اسمعهم يتكلمون وليس أحد يرد عليهم فاغتم ولا أصبر حتى أرد عليهم مع أنى لست أطلبهم ولاأدق أبوابهم فقال له أحمد.. ان جاءك مسترشد فأرشده» فأحمد يمنع الرد على أهل الكلام منعا لايقبل المعارضة أوالتسويف ويرى السكوت عنهم باب الخير والنجاة فهو لا يبيح فى معرض الافادة غير استرشاد الراغب لانه طالب حق لاجدل أما غيره فلا لجاج ولا جدال ورجل هذا مذهبه وطريقه لن يلتقى مع المعتزلة ـ أياكانوا ـ فى الطريق ولوالتقى معهم فى شيىء لعد من غرائب الطباع ومتناقضات الأشياء واذن فلا نسأل بعد ذلك كيف اختلف ولكننا نقول ان الخلاف امر طبيعى بين سلوك وسلوك واتجاه واتجاه ..

---

(١) ترجمة الذهبى ص ٣٣

سلطان يتحكم

يقول الامام على كرم الله وجهه .. اذا أقبلت الدنيا على انسان كسته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه ... وهذا قول صائب لا مرية فيه فكم أقبلت الدنيا على فرد من الأفراد فخلع عليه الناس محاسن الكمال ونسبوا اليه أرق الشمائل وأنبل الصفات ولم يتركوا محمدة من المحامد الا جعلوها بعض مناقبه ومزاياه وان كان فى ميزان الواقع لا يمتاز عن غيره من الخلائق فى علم أو خلق أو تصريف .. وكم أدبرت الدنيا عن ذى جاه ممنع أو سلطان قادر فاتجهت اليه الألسن بقوارصها اللاذعات وطفق الناس يبحثون عن المخازى المستورة والمثالب المنكرة ليجثموا بعبثها الثقيل على منكبيه ... فيصبح وقد أنكره من عرفه وتبرأ منه من صافاه ..

لقد أقبلت الدنيا على المأمون العباسى بعد اندحار أخيه الأمين فسطر التاريخ للمنتصر كل مروءة تظن وتنأى به عن كل شبهة تتلمس ، كما أغفل ما للمهزوم من مروءة وفضل . فانطلقت الروايات تتحدث عنه بكل نقيصة ومذمة . حتى لغته العربية المطبوعة جعلت مثار الهزء والتندر فــلا يكاد ينطق بكلمة فصيحة بعيــدة عن اللحن مع أن مؤدبيه فى ظلال والده كانوا من أئمة البيان فمحال أن يترك الرشيد ولده عييا ألكن ثم يرشحه للخلافة فى بيت بنى هاشم وقد أرضعوا البلاغة فى المهد فشبوا ذوى أدب وافتنان ولكنها الدنيا أدبرت عن الأمين فأصبح هدف التزيد والافتراء

لسنا بذلك نريد أن نجرد المأمون من كل فضل وعقل ... فالرجل عالم مطلع شغل بالفلسفة والمنطق وعقد مجالس البحث والمناظرة وجمع اليه أساطين القول وأرباب الجدل وناقش وعارض فتفتق ذهنه عن ألمعية ومقدرة هذا ما نعترف به ونؤكده .. ولكنا نكتب عن المــأمون كرجل سياسى يتبوأ أسمى مراكز الدولة فى الاسلام فهل قام فى منصبه السياسى بما يثبت كفايته ومرونته ، أو انه وقع فى عدة أخطاء تغــافل عنها أكثر

المؤرخين !! ولو لزموا جانب الحق لذكروا الفضل والنقص والهبوط والارتفاع .

لقد قامت الثورات المختلفة فى عهد المأمون بسبب اندفاعه وتعجله فهو لم يبحث فى شئون الدولة بما يجب ان يتعمق فيه ولى الامر الحصيف ولكنه ترك لوزيره الفضل بن سهل كل شيىء من أمور الحكم فجمع حوله الأقارب والأصهار وملأ الجو بالفتن والدسائس وأوغر صدر المأمون حتى على أخلص خلصائه وأبرع قواده ، فقد كان القائد المحنك هرثمة بن أعين يد المأمون الأولى وبسطوته الحازمة تم النصر له ببغداد ، وارتاح نهائيا من الأمين ثم قامت بعض الثورات على المأمون وعجز عن اطفائها قادة الكماة من كبار القواد فلم يكن كفئا لها غير هرثمة فنهض للخطب الجلل وانتقل من ثورة الى ثورة ؛ حتى هدأت الأمور على يديه .. وكان جزاؤه بعد هذا الجهاد اللاغب أن يستدعيه المأمون مخفورا ولا يأذن له ببيان وجهة نظره وايضاح مظلمته بل يهجم عليه الحراس فى حضرته فيوسعونه ضربا وطعنا ثم يسحبونه الى السجن ليموت متأثرا بجراحه بعد قليل .. فأى تصرف هذا الذى يجزى جزاء سنمار فيشج رأسا كان حقه الأكليل ؟!

ثم ما هذا الاغراق فى الجدل من خليفة مسئول ، لقد شغلت الحكومة عن المصالح العامة بأمور جدليه لا تهم الرعية فى شيىء وانحاز الخليفة لحزب معين يستوزر رجاله ويناوىء أعداءه مع أنه رئيس الجميع ، وعليه ألا ينصر فريقا على فريق مهما كان معتقده وهواه ، بل ان تسرعه العاطفى قد جعله يغضب أهل بيته ويبايع احد ابناء على حتى اذا تيقن الخطر فى شططه مهد للخلاص من ورطته وكر ناكصا عن جهته العلوية وناقض نفسه فلم يسلك جانب النصفة بل اضطهد كثيرا ممن ينتسبون الى على وتعقب البارزين منهم فى اليمن وخراسان حتى قاسوا على يديه البلاء !!! فاى تناقض جائر يقع فيه خليفة يمعن فى الجدل والتناظر أكبر امعان ؟!

لقد كان المأمون ذا اخطاء كبيرة ومع أن مؤرخى المسلمين قد ذكروا متناقضاته وغرائبه الا أنهم فى الأكثر الأغلب أحاطوا ذلك بتبرير مشفق ودفاع قلق واهن !!!أما الفرنجة فقد نظروا اليه نظرة أكثر واقعية واعتدالا

فقالوا فيه ما يجب أن يقال بعيدا عن كل عطف وتبرير .. ونحن لا نصدق مؤرخي الغرب في كل ما يقولون ولكننا لسنا كثيرا من الصواب لديهم في أمر المأمون ولديك بعض ما قاله السير وليم موير في كتاب الخلافة مترجما عن كتاب الدولة العباسية (١)

« فمما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفا بالعدل والحلم وانما يؤخذ عليه أنه كان متقلبا فى آرائه وشعوره سواء أكان ذلك فى المسائل السياسية أم الدينية ويرجع السبب فى ذلك الى نزعته الفارسية التى ورثها عن أمة والبيئة التى ربى فيها من جهة والى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى ، على اننا مع اعترافنا بعدله ، لا نستطيع أن ننزهه عن الجنوح فى بعض الأحيان الى الجور واستعمال القسوة من غير مسوغ فانه قد تصرف فى بعض الحوادث تصرف الجبابرة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ما سودوا به صحائفهم كثيرا ولو أغضينا عن الشبهات التى حامت حول مقتل الفضل وموت على الرضا غدرا وغيلة فاننا لا نستطيع ان نغضى عن معاملته الجائرة لابن عائشة وما لقيه هرثمة وطاهر مع تفانيهما فى نصرته وتوطيد حكمه واضطهاده لكثير من أجلاء المفكرين وأصحاب الآراء المخالفين لرأيه فى بعض مسائل الدين فى مجلس المناظرة مما يدل على قسوته ، الا اننا اذا راعينا طول مدة حكمه وموقفه النبيل فى عفوه عن الخارجين عليه فى بغداد نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جوره وقسوته وقصارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الاجمال من أزهى عصور التاريخ الاسلامى .. »

هذه كلمة مؤرخ منصف لم يشأ أن يكون تاريخه تسبيحا بحمد خليفته فهو يأخذ عليه بعض الأشياء كما لم يشأ ان يغفل ما رآه فى أخلاقه من المحاسن والمزايا الطيبات فهو بانصافه العادل يعطى مثلا قويا لهؤلاء الذين يتحدثون عن المأمون وكأنه ملك كريم ... فهو يقول لهؤلاء انظروا الى الرجل من جميع نواحيه لتكونوا نقدة منصفين ...

فهل كان المأمون محقا كل الحق حين سخر الدولة برجالها ورؤسائها

---

(١) الدولة العباسية للاستاذ حسن خليفه ص ١١٠

لمحاسبة الذين لا يقولون بخلق القرآن ؟ !!! وهل كان المنطق يوحي بأن تكون المناظرات العلمية مجال افتاء بين الناس ، فاذا لم يجد موافقة تامة لما يعتقد عزل وشهر وعذب وآذى مئات ومئات ؟ !!!

ان كثيرا ممن يؤرخون هذه المحنة القاسية يحاولون تبرئة المأمون فلا يستطيعون فهم في دفاعهم المتخاذل يزعمون أن الخليفة الباقعة الألمعى قد وقع تحت تأثير قاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى !!! ولولاوجود أحمد ما تحمس المأمون لقضية القرآن هذا التحمس البالغ ونحن نقـول لهؤلاء أهذا دفاع •• أم ملام ؟ •• فلو كنتم صادقين فيما تنسبونه لابن أبى دؤاد لكان المأمون فى يده ريشة خفيفة يهب بها فى كل اتجـاه ••• وتلك نقيصه شائنة لاتلصق بخليفة مثقف ضليع الا أن يكون مظنة الضـعف والاستسلام ••••

أجل كان ابن أبى دؤاد ذا منزلة كبيرة فى دولة المأمون ولكن ليس له ــ بالغا ما بلغ ــ من الخطورة والاقبال أن يسير الأمور كما يشاء دون معقب أو مشير الا انيكون قد صدر فى فعله عن هوى صادق فى نفس الخليفة فتلاقت الرغبتان •• ووقعت المحنة النكراء ! • ثم من هو أحمد ابن أبى دؤاد •

ان الذين يؤرخون له •• فى أكثرهم •• يحققون ما سلف من قول الامام على •• «واذا أدبرت الدنيا عن شخص سلبته محاسن نفسه ؟ فقـد نكب الرجل نكبة سوداء فى خاتمة حياته ، ووقف منه المتوكل موقفا عجل بموته فى أعسر الأوقات •• فاندفع اعداؤه على كثرتهم الى تدوين مثالبه، ثم تجويفها وتضخيمها والزيادة عليها بما لا يمكن أن يطاق حتى وصفوه وهو المدره اللسن ــ بالجهل والغفلة والبله ••• وبين ما ذكره المكثرون من أعدائه ، والمقلون من منصفيه نستطيع أن نعرف مكان الرجل وان نضعه موضعه الصحيح ••• لم يكن الرجل عظيما فيتبوأ مكان الحظوة فى الدولة عن حب زائف أو نسب قريب !! ولكنه نشأ بين العامة وشارك فى البحث والدرس حتى بلغ بذكائه مبلغ التقدير والاحترام •

كان والده رقيق الحال ضائق اليد فحاول أن يصرف نجله عن القراءة للتكسب من عمل يدر عليه المال ولكنه مال الى العلم والبحث وصاحب كبار

رجال الاعتزال حتى عد من المتضلعين ذوى اللسن والافحام ؛ وجمعه حسن طالعه باحدى مناظرات المأمون فجلى عن رجاحة وعرفان حتى عرف الخليفة مقامه ووثب به الى الحظوة المرموقة دون انتظار ...

فرجل يجلس فى مجلس العلية من ذوى الافحام والجدال لابد أن يكون موفور الثقافة عظيم الذكاء وكل ما يقال عن بـلاهته وجهله محض افتراء وبهتان والافما وسيلته الى التصدر العلمى وليس – قبل – بذى حسب أو جاه على أنه فوق توقده الذهنى كان سعيدا بحافظة جامعة مستوعبة مما ينبىء أنه قطع مدى طويلا فى الرواية والاستيعاب ، قيل سـأل المأمون جلساءه عمن بايع ليلة العقبة من الانصار فلم يدر احد عدتهم غير أحمـد بن أبى دؤاد فقد عدهم واحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأنسابهم فقـال المأمون اذا استجلس الخليفة فاضلا فمثل أحمد فقال ابن ابى دؤاد واذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذى يفهم عنه ويكون أعلم بما يقال ..ومن كان هذا مبلغه من الحفظ فى خبر يسير قد يكون هنالك ماهو أهم منه وأولى من الأخبار فهو لغيره أحفظ ولن يكون اعجاب المأمون بأحمـد عن غير طريق العلم والجدال ، حتى انه أوصى به خليفته المعتصم فقال فى آخـر كتاب له .. وأبوعبد الله أحمد بن ابى دؤاد لا يفارقك أشركه بالمشـورة فى كل أمرك فانه موضع ذلك (١)

فأحمد العالم المعتزلى اللدود قد شارك فى مساندة المأمون وتعضيده ولكنه لم يكن صاحب السيطرة والأمر كما يحاول المبررون لصنيع المأمون أن يصفوه .. انما كان صاحب السيطرة والأمر فى ذلك بعد وفاة المأمون وفى عهد المعتصم اذ ان الفرق بين الخليفتين عقلا وثقافة يجيز للقاضى العنيد هذه السيطرة الطاغية وذاك التحكم العنيف .. ولدينا نص يثبت جنـوح المأمون الى اظهار القول بخلق القرآن وجعله مذهبا عاما للدولة قبل اتصاله بأحمد بن ابى دؤاد فقد روى المقريزى ان يحيى بن أكثم قال ... «قال لنا المأمون لولا مكان يزيد بن هرون لأظهرت القـول بخلق القـرآن فقال له بعض جلسائه .. ومن يزيد بن هرون حتى يهابه امير المـؤمنين.

(١) هبة الايام ص ٨٣ بتحقيق الاستاذ محمود مصطفى

فقال انى اخاف ان اظهرته أن يرد على فيختلف الناس وتكون فتنة وانا اكره الفتنة فقال الرجل ... انا اخبر بذلك يزيد بن هرون فخرج الى واسط ـ فجاء الى يزيد فدخل عليه المسجد .

فقال يا أبا خالد ان امير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك انى اريد ان أظهر القول فى أن القرآن مخلوق فقال له يزيد : كذبت على امير المؤمنين ، فان كنت صادقا فاصبر الى ان يجتمع على الناس ؟ قال فلما كان الغد واجتمع عليه الناس ، أعاد رسول الخليفة ما قال له فى اليوم السابق وتساءل: ما عندك فى ذلك؟ قال كذبت على أمير المؤمنين، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على مالا يعرفون ، وما لم يقل به أحد ، ثم عادا الرجل فأخبر المأمون فقال : أعلمت ؟ لقد تلعب بك » ومعروف أن يزيد بن هارون قد توفى ٢٠٦ هـ وأن أحمد بن أبى دؤاد قد ولى منصب قاضى القضاة بعد عزل يحيى بن أكثم سنة ٢١٨ هـ أى بعد اثنى عشر عاما .. أفكان المأمون اذ ذاك خاضعا لتأثير ابن أبى دؤاد ؟ أم انه تفكيره الخاص واتجاهه الصريح ، لشتان بين المعتصم والمأمون ؟ كان المأمون كما سلف القول كثير المعرفة جميل الرأى فى اللغة والأدب والجدل والكلام ، فشأنه فيما يأخذ من أسباب المناظرة شأن الفاحص الدارس الخبير ولكن المعتصم كان من أرباب السيف فقط . ولا يكاد يشارك مشاركة ما فى رأى أو تفكير ، !! فاذا تسلط عليه ابن أبى دؤاد بتوجيه المأمون وتوصيته فقد صادف من الخليفة مركبا ذلولا ومقادة هينة ، وانك لتلمس جهل المعتصم من هذه القصة.(١) فقد ورد عليه كتاب من أحد العمال ، فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمارة وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فقال المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لا أعلم فقال المعتصم : خليفة أمى ؟ ووزير عامى !! اسألوا من بالباب من الكتاب ، فخليفة لايعرف معنى الكلأ لايمكن أن يرجح فريقا على فريق أو يجلس مجلس المناظرة فى محنة خلق القرآن عن رغبة واقتناع بل يسند أمر ذلك الى من بيده الخصام واللجاج !! ولن يكون غير أحمد بن أبى دؤاد ، والحق ان المعتصم كان فى أطواء نفسه نفورا عن كل ما يمت

---

(١) أمراء البيان ج ١ ص ٢٨٠

الى المحنة من تناظر فقتل فتعذيب ، ولكن أحمد من ورائه يقول له : هـذا أمر المأمون !! سر فى طريقك فاقتل من تشاء ! وفى رقبتى دماؤهم يوم الحساب وما زال بالمعتصم حتى سلم له الأمر فعمد الى الفتنة الثائرة، والتنكيل بأناس لم يروا أن يخوضوا مع الخائضين ، وفى مقدمتهم امام أهل السنة وبطل المحنة أحمد بن حنبل كما سنلم بتفصيل ذلك بعد حين .

راح المعتصم وجاء الواثق بالله ؛ فوجد أحمد بن أبى دؤاد مهيمنا على شئون الدولة . متصدرا مجالس الامتحان فجرى الأمر على سـننه الطبيعى من تعذيب وقتل وسجن وارهاق ، والخليفة الجديد كسابقه المعتصم ضيق الأفق قليل المعرفة ، فهو يظن المسـألة مسـألة دين وعقيدة ، واحتفاظ بكرامة الاسلام ، وقد ألف أن يرى فى عهد سابقه فظائع التنكيل ، وفواجع التعذيب ، فلم ير فى استمرار ذلك على يد أحمد شذوذا شنيعا تضطرب به الدولة ويتفزع له الناس ، ولكنـه فى أواخر عهده أصيب بقلق نفسى ، فكان يخلو الى نفسـه متسـائلا عن هـذه الأفواج المعـذبة التى تسـاق مقهـورة الى التنكيـل والارهاب ، دون جريرة واضـحة يرتكن اليهـا منتقم عنيد ، ثم يقابل ابن أبى دؤاد فيزيل عنـه هواجس الشك بما يضرب من مثـل أو يحتال منخداع، اذ يذكر له جهاد المأمون وعزيمته ، ويحدثه عن شكيمة المعتصم وحزمه ؛ ويدعوه الى أن يقتدى بسلفيه الكبيرين !! وكثير من المؤرخين يذكرون أن الواثق فى أواخر ايامه قد وقع فى حيرة مربكة فلم يعنف فى التنكيل ولم يطلق يد أحمد اطلاقا تاما ، بل تغاضى مرة ، وتشدد مرة ؛ مما يؤكد أنه صدم بالمحنة صداما لا محيص عنه ، ولا محيد ثم حانت وفاته فاستراح من شكوكه وتردده وأسلم الأمر الى المتوكل وعلى يده ختمت المأساة وانتهى الصراع ولنا أن نبحث عن الحافز الملح الذىدفع المأمون وصاحبه الى هذا الاضطهاد الأليم ، انك لتقلب الأمر على وجوهه فلا تجد رأيا يقنع ، أو منفذا يصل بك الى وجه سديد ، فهل كان القـول بخلق القرآن أحد أركان الاسلام التى يجب أن تذاع صريحة مكشـوفة

فلا تحوم حولها شائبةأو ينهض بازائها اشتباه؟! هل كانت العقيدةالمحمدية على شفا جرف هار لايكاد يمنعها من السقوط غيرالقول بخلق القرآن!! لم يكن القول بذلك أحد أركان الاسلام ، ولم تكن الشريعة مهددة بالسقوط ان أمسك القوم عن الخوض فى هذا اللجاج ، وانى لأطالع جميع ماقيل فى تعليل ذلك وتبريره فلا أحس باطمئنان مريح ، حتى لأكاد أجزم أن القائمين على هذا الأمر قد استسلموا لخيـــال جامح قذف بهم فى أحلك المتاهات !!

ان بعض الذين يدافعون عن المأمون وشيعته يقولون ان القرآن كلام الله ، وان عيسى بن مريم كلمة الله بنص القرآن ، وقــد حكم النصارى بقدم عيسى وعبدوه ، وقد يجيىء قــوم فيحكمون بقــدم القرآن ويعبدونه وذلك ضلال أى ضلال !! فالقــول بخلق القرآن بسد هذا الباب ، ويمنع تعـــدد القدماء !! هـــذا قولهم وهو ظاهر التهافت والوهن اذ أن القياس هنا مع الفـارق كما يقـــولون : فعيسى بشر والقرآن كلام .

هذا وسنبسط فى الفصل القادم جوهر الخلاف بين المأمون وشيعته فى خلق القرآن من ناحية ، وبين الامام أحمد وشيعته من ناحية ثانية ، الا أننا نقول هنا متسائلين ؟ هل أصاب القوم فى هذا الارهاب الدموى الذى نشروه طولا وعرضا فى الدولة الاسلامية من جراء هذا القول العجيب ؟؟ وهل كان الاسلام يدعو الى الجبر والاكــراه فى اعتنــاق العقائد وكشف الآراء ؟ واذا كان المعتزلة ذوى حرية فى البحث ، فهل تقتصر هذه الحرية عليهم وحدهم دون سواهم من طوائف الاسلام !! ان الواقع المرير قد كتب لهؤلاء الغلاة صحفا من المآثم والشرور . فمهما كان دافعهم الى القول بخلق القرآن معقولا مقبولا فلا يجيز لهم أن يشنوا ارهابا معتسفا ، يضطرب به الأمن وتمتلىء منه السـجون ، وتصادر به الأرزاق ، وتسفك بسببه مئــات الارواح لأناس مؤمنين يتمسكون بظواهر النص ، ويعيشون فى حدود تفكيرهم المتواضع ،

ولا تكلف نفس الا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت !! ففيم العسف والطغيان ؟!

لقد خسر المعتزلة بهذا الطغيـــان الجائر مكانتهم لدى العـــامة بين المسلمين ؛ ومنذ انطوى عهد المعتصم والواثق وجاء عهد المتوكل رأينـــا هؤلاء الجبابرة يتهاوون ويتضـــاءلون ، وقد انتشرت لهم فى الأفـق الاسلامى لائحة بغيضة باعدت بين الناس وتعاليمهم المنطقية الرائعة!! وقد سجلنا فى فصل سابق أثرهم المجيد فى الدفاع عن الاســلام ، ولكن محنة خلق القرآن قد محت هذا الأثر محوا عاصفا وصـــبغت مابقى من أصوله بلون كريه لا تستسيغه كثير من النفوس !! وكنـــا نتمنى الا يمر هؤلاء بهـــذا الدور الـــدموى العجيب ، حتى يزاولوا نشـــاطهم العقـلى دون أن يجدوا هــذا الصدود الهـائل من جمهـــور المسلمين ، ولكنهم جنوا على أنفسهم جناية أليمة ، وذلك مايبســـطه الاستاذ أحمد أمين اذ يقــول ص ٢٠٣ من الجزء الثالث كان خـــيرا للمسلمين ألا يدخـــل المعتزلة فى أحضـــان الدولة وأن يعيشوا كما عاشوا فى عهد المنصور وأول عهد المأمون فلو ساروا على هذا النهـــج لانتفع المسلمون من ذلك أكبر نفع ولتغير تاريخ الاسلام •

وقد كان المأمون هو المشجع الأول لهؤلاء على السيطرة السياسية فى أنحاء الدولة فكرهتهم العـــامة ، وأفل نجمهم أفولا أليما وانقطـع ما كان يرجوه المسلمون على يديهم من توثب ونهوض •

وبعد أفليس الذنب فى كل ذلك ينتهى الى المأمون ؟!

بيت القصيد

بيت القصيد فى كل شىء جوهره ولبابه وبيت القصيد فى هذه المحنة التى نكب بها المسلمون دون ما داع ملح هو القول بخلق القرآن ..

فما معنى هذا القول ؟ وما وجهه ؟؟ ثم ما رأى الذين عارضوه وناهضوه. وهل يمكن أن يتلاقى الرأيان فى طريق واحد أو أن بينهما من الفروق مدى يتسع ويزيد ؟ ! لقد قال المعتزلة بخلق القرآن لانهم قالوا بالتوحيد المطلق ومعناه أن ذات الله وصفاته شىء واحد لايقبل التجزئة بحال من الاحوال ، واذا كان الله وصفاته وحدة لا تقبل التغير فجميع صفات المعانى من قدرة وارادة وعلم وكلام وسمع وبصر منفية عنه سبحانه وتعالى والا كانت قديمة بقدم ذاته فيتعدد القدماء وذلك محال ! واذا قيل ان الله عالم أو قادر أو سميع فعلمه وقدرته وسمعه لذاته لا بشىء زائد عنه لأنه لو كان كالانسان يعلم بشىء زائد عن ذاته لكان هناك صفة وموصوف وحامل ومحمول وهذه حالة الاجسام والله منزه عن الجسمية ، واذن فجميع صفات المعانى منفية عن الله ! والقرآن كتاب الله وكلامه فهل معنى ذلك انه صفة من صفاته ؟ لو كان الأمر كذلك لكان الله ذاتا وصفته شيئا واحدا ولكان القرآن أزليا وهو يتضمن أمرا ونهيا لأناس وجدوا بعد أمد كبير ومحال أن يكون المعدوم مأمورا والأمر لغير مأمور عبث لا يصدر عن حكيم هذا دليلهم العقلى! أما النقلى(1)

١ ــ فقد قال الله تعالى واذ قال ربك للملائكة ، واذ ظرف زمان ماض فيكون قوله فى الواقع مختصا بزمان معين والمختص بزمان محدث .

٢ ــ يقول الله .. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ، وهذا يدل

(1) ضحى الاسلام ص ٣٥ جـ ٣

على أن القرآن مركب من الآيات التى هى أجزاء متعاقبة فيكون حادثا ..

٣ ــ قوله تعالى «حتى يسمع كلام الله» والمسموع حادث لأنه لا يكون الا حرفا وصوتا .

٤ ــ انه تعالى عبر عن القرآن بقوله «انا أنزلناه» ولا شك انه لا انزال فى الأزل .

٥ ــ ان القرآن نص على نسخ بعض الآيات بقوله : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » ولا يتصور النسخ الا فى الحادث لأن القديم ليس عرضة لذلك .

هذا رأى المعتزلة ! فما رأى أحمد فى هذا الموضوع ؟ .

ذكر بعض المؤرخين أن أحمد كان يتوقف فى هـــذا الأمر فلا يخوض اطلاقا مع الخائضين بنفى أو اثبات لأن الصحابة وعلماء السلف لم يتجهوا هذا الاتجاه وقد دعا الرسول أهل الجاهلية الى عبادة الله وشرح لهم قواعد الاسلام وانطلق الدعاة من صحابته الأخيار فى فجاج الأرض ينشرون هدية ويثيرون مصباحه فما قال أحدهم ان القرآن مخلوق واذن فطريق السلف يغاير ما يراه من لجاجة فى الجدل وتأويل لظواهر النصوص ! وتمسك بالقياس النظرى مما يبتعد عن روح الدين ولا يتفق وسننه المتبعة فى أزهى عصوره الماضيات .

ونحن نرى أن أحمد لو توقف ولم يبد رأيه الصريح ما كابد ظلمات السجن ونيران السياط لأن الذى أرمض قلوب خصومه تصميمه الجازم على أن القرآن غير مخلوق ! وقد كانوا يحاولون بشتى المغريات أن يزحزحوه قليلا عن هذا التصميم فما نجحوا فى قليل أو كثير بل ان أحمد بعد المحنة عاتب من توقف ولم يقطع برأى ولو كان متوقفا ما حرم على أناس ما أحله .. فالامام لم يتوقف بل جهر بما يعتقد أنه الحق الأكيد .. واذن فما رأى أحمد الصريح ؟ ان الذى يراجع أدلته واجاباته المختلفة أمام ممتحنيه من أئمة المعتزلة يراه يجزم بأن القرآن كلام الله غير مخلوق .. وأمامنا نص صريح فى كتابه الى المتوكل بعد انقشاع الغمة حيث قال بعد تمهيد طويل فى ذم اللجاج والاختلاف

وتأويل القـرآن وتجـزئته وفق الآراء والأهـواء وقد قال الله تعـالى : « وان أحـد من المشركين استجـارك فأجـره حتى يسمـع كـلام الله » وقال : « ألا له الخلق والامر » فأخبر أن الأمر غير الخلق ــ وقال عز وجل « الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان » فاخبر ان القرآن من علمه وقال تعالى : «ولن ترضى عنكاليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » وقال « ولئن أتيت الذين أوتوا الـكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتـابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعـد ماجاءك من العلم انك اذن من الظالمين » وقال تعالى : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق » فالقرآن من علم الله !!

وفى هذه الآيات دليل على أن الذى جاءه هو القرآن ؟ لقوله « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم » وقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق وهو الذى اذهب اليه لست بصاحب كلام ولا أدرى الكلام فى شىء من هذا الا ما كان من كتاب الله أوفى حديث عن النبى صلى الله عليـه وسـلم أو عن أصحابه أو عن التابعين فأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود » •

ونستطيع أن نلخص رأى الامام فنقول القرآن من علم الله وعلم الله غير مخلوق فالقرآن غير مخلوق •

كما نستطيع أن نلخص رأى المعتزلة فنقول •• القرآن كلام الله وهو مركب من حروف متعـاقبة فى الوجود وكل ماهو كذلك فهـو حادث فالقرآن حادث مخلوق ••

هذان همـا الرأيان اللذان شغلا العقول وأرهقا الناس وما كان للمأمون وشيعته من بعده أن يجعلوا منهما هما ناصبا تلهى به الدولة عن كل شىء فتفـرغ من شئـون الادارة وتبعـات الثورات ورعاية الأمن الى جدل عميق مشتجر يمتحن فيه العامة والخاصة !!!

وطبيعى أن العامة لايستشفون لباب هذا الجدل فهم أعداء مالا يألفون وكلما زادت اللجاجة وامتد الارهاب زاد غضب العامة وتباعدوا عن الخلافة ورأوا أن أمور الدولة تصرف فى أيدى قوم من الملاحدة لايستشعرون رحمة أو شفقة بل يعذبون ويقتلون ويسجنون دون ايمان برادع أو بعقل يشير ..

وقد مرت الايام فانكشف الجدل المتطاحن عن خلاف لفظى يتعلق بالعرض ولايصل الى الجوهر فى شيء . وقد محصه أبو الحسن الاشعرى حين قال ما ملخصه .. ان كلام الانسان يطلق على الصوت المسموع ويطلق على حديث النفس حين نلجأ الى التفكير والتأميل ، وكلام الله كذلك يطلق على المعنى النفسى القائم بذاته وهو أزلى قديم كما يقول أحمد ، ويخيل الى أن الارهاب الوحشى قد حال دون ايضاح الامر فى حينه ، فلو أن المعتزلة قد منعوا كل ارهاب ، وأفسحوا مجال الحرية دون تعنت وتضييق لوصل الفريقان الى رأى صائب سليم ولكن ظلم هؤلاء فى الفعل قد وقف دون حقهم فى القول فكرههم الناس على صدقهم الاكيد ... وهكذا تثبت الايام أن الحق لاينشر فى ظلال الجور والعسف بل لابد أن تتآخى جميع الفضائل فيكون هناك حق وعدل وحرية ومساواة أما أن نستعين بالباطل لتأييد الحق فهذا مايطمس لألاءه ويجعله على صدقه الواضح زورا صارخا وبهتانا أى بهتان !!!

لسنا نلوم أحمد أن امتنع عن تقرير شيء لم يتبينه مهما كان حقا أكيدا ، ولكننا نلوم أناسا ينادون بالحرية ويفسحون لأنفسهم منها مجالا واسعا فى الحجاج والنقاش ثم لايتركون لغيرهم شيئا مما يأخذون .. وليت شعرى ماجدوى الشمس المشرقة ان تمتع بنورها سواك وبقيت فى سجن مظلم لايتسرب اليك شعاع من منفذ .. أو بريق من كوة ؟ لك أن تبغض الشمس اذ ذاك . ولا تأس عليها فى شيء ان آذنت بالغروب والوداع !! انى لأفكر فى أدوار هذه القضية المدهشة فأعجب عجبا لايقف عند حد فقد تناقضت فصولها تناقضا

يدعو الى الحيرة والدهشة !! ففي زمن معين يكون القول بخلق القرآن زندقة فاضحة والحادا دونه كل الحاد ثم يحكم على القاتل بالاعدام ويصلب جسمه أمام الناس ، ثم فى عهد آخر يصبح القول بعدم خلق القرآن تهمة شنيعة تسفك فيها الدماء وتتطاير الرقاب وما تنقضى أيام حتى يعود العهد الاول فيصبح القول بالخلق زندقة مارقة ، وفسوقا خارقا ، وارتدادا عن الدين تطلق معه الزوجات ويشرد الابناء !!

والمسلمون هم المسلمون وكتاب الله هو كتاب الله ان ذلك ليذكرنى بأسطورة قديمة خلاصتها أن رجلا دخل الى احدى بلاد الصين فهم بشراء سلعة من السلع وقدم قطعة ذهبية فقبض عليه لفوره اذ أن الدولة تتعامل بالنحاس لا بالذهب فذهل ذهولا عجيبا لما رآه ، ثم أطلق سراحه بعد أن استوفى مدة سجنه وذهب لشراء سلعة ثانية فبحث عن قطعة نحاس وقدمها للبائع فقبض عليه لفوره اذ أن الدولة قررت أن تتعامل بالذهب لا بالنحاس وقبل أن يذهب الرجل الى سجنه مرة ثانية طلب أن يقف على رأس جبل وينادى ، فأجيب الى ما طلب ووقف ليصيح .. « رباه . أنا المجنون أم هؤلاء ؟ » لقد قال الجعد بن درهم بخلق القرآن فى أواخر العهد الأموى فقطعت رقبته وصلب جسمه بمرأى من الناس .. ثم قال به بشر بن غياث المريسى فى عهد الرشيد فطرد من مجالس العلم وتعقبه هارون قائلا : « لئن أظفرنى الله به لأقتلنه » ومع أن المأمون قد جاء بعد الرشيد بمدى قريب فان القضية قد عكست فى عهده ، وأصبح من يقول بالخلق هدفا للقتل والتعذيب واشتعلت النار فى عهدى المعتصم والواثق حتى اذا جاء المتوكل انقلبت القضية مرة ثالثة فأصبح من يقول بالخلق زنديقا يلجأ الى التستر والهروب ؟ فهل لنا أن نقول مع الاسطورة الصينية من المجنون أولئك أم هؤلاء ؟

على أن اهتمام الناس رؤساء ورعية بهذا الحديث الجلل قد دفعهم الى ضرب من التندر السافر يظنه الظان فكاهة عابرة وهو

صدى شعور مكبوت يحتدم ويتطلب التنفيس ببعض الشيء فيلجأ الى الدعاية والمرح فى ظاهر الأمر : أما البـاطن فتقريع أليم وتأنيب ممض يلمح بعيـدا بعيـدا دون أن يصرح به فطن يحـذر العاقبة ، ويتربص الدوائر !

دخل عبـادة المخنث على الواثق وقال له : ياأمير المؤمنين عظم الله أجرك فى القرآن ، قال ! ويلك القرآن يموت ؟ قال .. يا أمـير المؤمنين كل مخلوق يموت وبالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالنـاس التراويح اذا مات القرآن فضحك الخليفة وقال . قاتلك الله أمسك !

وسواء أكان عبادة المخنث صاحب الامر فى هذا السـؤال عن شعور نفسى قام بذاته ؟ أم أن أحد خصوم المعتزلة قد لقنه هـذه السؤال ؟ فان مغزاه الصائب واضح الدلالة فى كل لفظة وحـرف . ثم اننا لنعجب كيف يخوض العامة مخاضا لا يألنونه ولا يستطيعون له سبحا ، وها هو ذا أحدهم يشبه القرآن بالانسان فيتسـاءل عن موته وحياته كما يموت الانسان ويحيا سواء بسـواء ألم يكن من الواجب أن ينصرف النـاس عن مطاحنات تضر ولا تنفـع وتورث الضغائن السود ، بدل أن تجمع القلوب على حب دائم وود عميق !

تلك كبيرة خطيرة ! وعسى أن نأخذ منها أبلغ العبر وأوضـح العظات !

عـــاصفـــة

كانت بغداد هادئة وادعة لا تكدر سماءها سـحابة غائمة حتى جاء كتاب من المأمون الى عامله اسحق بن ابراهيم يأمره فيه أن يجمع القضاة والمحدثين وأرباب الفتوى من العلماء ليمتحنهم فى موضـوع خلق القرآن ، واسحاق رجل ادارة وسياسة لايحذق شيئ من الجدل ولا يعرف أى مرمى يهدف اليه الخليفة انما يقرأ الكتاب القادم اليه فيلمس الاهتمام البالغ ويدرك حرص سيده على تنفيذ أمره تنفيـذا صارما لا هوادة فيه ولا ابطاء ! فيقول فى نفسه قد تكون المسـألة مشكلة دينية خطيرة لا أفهم كنهها الصحيح وما على الا أن أنفـذ الامر فى سرعة طائرة ووثب عجول ..

وسار الناس فى انحاء المدنية فوجدوا أئمتهم من الفقهاء يساقون معجلين الى بيت الحاكم وقد دار همس مريب فمن قائل انهم سيمتحنون وقائل أنهم سيبعدون حتى اذا علا الهمس خفوا عجالا الى منزل اسحاق وأرهفوا السمع فوجدوا كاتبه يقرأ من كتاب أمير المـؤمنين (وقد عرف أمير المؤمنين ان الجمهور الاعظم والسواد الاكبر من حشو الرعية وسفلة العـامة ممن لا نظـر له ولا روية ولا استدلال لجـلالة الله وهدايته ولا استضاءة لنور العلم وبرهانه فى جميع الآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده ...

فرأى أمير المؤمنين أن أولئـك شر الأمـة ورءوس الضـلالة المنقوصون من التوحيد حظا والمنجوسـون من الايمان نصـيبا . وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله فانه لا عمل الا بعد يقين .. فاجمع من بحضرتك من القضاة ، وأقرأ عليهم كتـاب أمير المؤمنين هذا اليك فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون

وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وأحـداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده واستحفظه من أمور رعيته بمن لايوثق بدينه وخلوص توحيده .. واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله (١) »

وفد هذا الخطاب الى بغداد ومصر ودمشق والكوفة فأحـدث صداه المزعج دويا مرعبا وقد قام الوالى بما يقوم به التـابع المطيع فأحضر من عناهم الخطاب وقام بالامتحان على وجهه المطلوب ونحن لانغفل التنويه بروح السيطرة والاستعلاء فى خطاب الخليفة ونظره الى من يخالفه نظرة الاحتقار والازدراء ثم التهجم الفاحش على من يسميهم سفالة العامة وحشو الأمة ...

وهم رعيته التى تزيد من بأسه وتمد فى سلطانه ...

ولم يكد يرسل خطابه الاول حتى عجل بخطاب ثان يستدعى به سبعة من كبار المحدثين فى بغداد ليتولى امتحانهم بنفسه . وقد كان بارعا فى مطلبه اذ أن امتحان هؤلاء بمدينة السـلام بعيدا عن عين الخليفة قد يبعث فيهم الجرأة فيعارضون قوله ، ويسفهون رأيه ثم تتناقل العامة مناوأتهم السافرة فيحلونهم محل التقدير والاجلال ، أما اذا كان الامتحـان بين يدى المأمون وقد قام الحراس بالسـلاح وأعدت السياط للمنابذين وطغت الرهبة على النفوس فهذا مما يميل بهؤلاء الى السلامة فيؤثرون التسليم ... وذلك ماكان فى واقع الامر حيث سافر هؤلاء الى الخليفة ووافقوه تقية وحـذرا ، وعجيب ألا يكون من بينهم أحمـد بن حنبل فهل كان لهـذا الامد غير جهير فى معشره أو ذويه !! !! لانظن ذلك ! بل ان الخليفة توقع شدة مراسه ، وصلابة عوده فآثر أن ينحيه عن الامتحان الاول بدليل أن ابن أبى دؤاد قد ذكر فى مجلس المعتصم فيما بعد أنه كان بين السبعة ولكنه حذف اسمه رحمة به ..

وابن أبى دؤاد لا يرحم ولكنه يستعمل الحيلة لانجاح خطته فى

---

(١) الطبرى جـ ٢

وقت سريع .. وقد عد المأمون موافقة هؤلاء نصرا مؤزرا وأمر باذاعة اذعانهم فى كل مكان ... وعزز بخطاب ثالث الى بغداد ملأه بالنصوص القرآنية والتأويل النظرى مما يوضح مذهبه ثم بالغ فى وجوب الامتحان والتشدد ، مع من يحجمون ولا يقدمون وانتظر الرد السريع فى مدى قريب .

جمع اسحاق أكابر العلماء فى مدينته ودارت مناقشات محتدمة علا فيها صوت القوة وجلجلت الرهبة بدويها المفزع فوافق من وافق عن خوف وحذر ، وعارض من عارض عن ايمان ورسوخ ثم بعث اسحق بما سمع الى المأمون فجاءه الكتاب الرابع يحتدم غيظا ويغلى غضبا وحفيظة وقد انحدر فيه الخليفة الى مستوى لاينبغى أن يهوى اليه من منزلته الشماء !! !!

فهو يتعرض الى كل فقيه بالتجريح والتشهير ويتغلغل فى حياته الخاصة وأمور منزله ومعاشه ، مما لانظن خليفة عظيما يحيط به ، ويدريه الا أن يكون قد وكل كتابته الى سواه واكتفى بالتوقيع وسواء كتب الخليفة كتابه أم عهد به الى غيره فهو صورة مزعجة من التحدى الصارخ ولون مظلم من ألوان العنت والتضييق !! !! وقد كان لهذا الخطاب دويه ، فاجتمع المحدثون ودار النقاش فى أفق كريه يغمره الارهاب المفزع حتى وافق الكثيرون وامتنع عالمان كبيران هما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح .. فسيقا مصفدين بالاغلال الى المأمون بطرسوس ولكن رحمة الله تداركت محمد بن نوح فمات فى طريقه متأثرا بشدة الحديد على ضعف فى الجسم وتقدم فى العمر ، وقد دمعت عين أحمد وأقام صلاة الجنازة على زميله الصابر المحتسب وكانت ساعة خاشعة وقف فيها امام بين يدى ربه ليودع اماما يعتقد انه سيلحق به عن قريب اما المأمون فقد عصم الله أحمد من حسابه فمات قبل أن يراه ... وليت المحنة ماتت بل انه ترك وصيته الى المعتصم ليقوم بالامتحان على أقسى وجه وأبشع تصريف ...

رجع أحمد الى السجن ، ولم يكن يخشاه بل كان يرى فى ظلمته وهدوئه متسعا للتأمل فالرجل زاهد بطبيعته وقد كان طليقا لايميل الى زخرف حياة أو زينة معاش ... ثم أصبح مقيدا كمطلق .. يسأل الله الثبات على الحق والشهادة فى سبيل الايمان .. وقد توافدت رسل المعتصم اليه فى سجنه يغرونه مرة بالثراء والحظوة ان استكان وأجاب ويناقشونه القول معتسفين باللجاجة والقياس ان عارض ، ثم مهددين بالقتل والصلب ان استمر والرجل يترقب مصيره المحتوم صابرا غير جازع ثابتا غير مضطرب وقد حضر مجلس المعتصم ثلاث مرات طوال فى ثلاثة أيام !! !! وفى كل مجلس يدور نقاش مضطرب بين أعزل ضعيف واهن وفريق مسلح بالقوة والمنطق والجاه، يقول الامام رأيا فيجيبه أكثر من عشرة مناظرين وكل يلتمس الحظوة لدى المعتصم فى تجن سافر أو مغالطة منكرة ، أو تهجم دنىء ولا هدف لذلك غير أحمد وقد كان موقف المعتصم غريبا كل الغرابة فقد كان بشعوره واحساسه يتجه الى أحمد ولكنه ينظر فيجد كبير القوم ابن أبى دؤاد يصيح به ... مضل فاسق ، أقتله يامولاى ؛ دمه فى رقبتى لا رقبتك حين تلقى الله وقد تواطأ أهل مجلسه من أئمة المعتزلة على الافتاء بقتله وتعذيبه وقد عرف ابن أبى دؤاد كيف يثير غضب المعتصم فذكر له أن العامة تقول ان أحمد قد غلب خليفتين وانه زعم انه دعا على المأمون فقتله الله !! والمعتصم حائر متردد لايدرى وجه الحق فى مايدور حتى غلبته الكثرة فأصدر أمره بتعذيب الامام فهوت السياط محرقة فوق بدنه النحيل ، ونلخص بعض مادار فى مجالس المعتصم الثلاثة ليرى الناس شجاعة أحمد وثباته فيكون مثلا أعلى للعقيدة المكافحة والتصميم الاكيد !! !!

دخل أحمد مجلس المحاكمة فنظر المعتصم الى شيخ أسمر اللون مديد القامة قد قوسه مر السنين وتعاقب الاهوال ونظر الى قيوده فى كفه فشعر برهبة موحشة ضاقت بها نفسه ، ثم استمع الى صوت رزين ينبعث « السلام عليك يا أمير المؤمنين » . فلم يتمالك أن قال

فى ادب ... اجلس ثم التفت يقول لأصحابه .. اما زعمتم انه شاب حدث السن . فلم يجيبوا بشىء فقال أحمد ..

ــ أتأذن لى بالكلام يا أمير المؤمنين !! !!

ــ تكلم كما تريد

ــ الام دعا ابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ــ دعا الى شهادة ان لا اله الا الله ..

ــ فأنا أشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله !!

سكت المعتصم ولم يرد فانتهزها أحمد فرصة سانحة وقال .. ان هؤلاء يا أمير المؤمنين يدعوننى ان اقول .. ان القرآن مخلوق وهو شىء لا أجده فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله يا أمير المؤمنين .. قد حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال حدثنا أبو حمزة قال سمعت ابن عباس يقول ان وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالايمان بالله فقال أتدرون ما الايمان قالوا ... الله ورسوله أعلم ، قال .. شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم فهذا مايرد به جدك وليس فيه شىء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن ..

فقال المعتصم متراجعا ... انى لم آمر فيك بشىء ولولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى ماتعرضت لك ... ثم يلتفت الى أصحابه ويقول .. ناظروه ، فيقول أحدهم :

ــ ما رأيك فى القرآن ؟

فيسأل أحمد ما رأيك فى علم الله ؟ فيسكت المعتزلى فيقول احمد .. القرآن من علم الله ، فمن زعم ان القرآن مخلوق فقد زعم ان علم الله مخلوق ومن قال بذلك فقد كفر ..

ــ معتزلى آخر .. قال الله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من

ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون) أيكون الذكر محدثا وهو عير مخلوق ؟

أحمد ... تلك ليست فيها ألف ولام فهى غير القرآن والله يقول والقرآن ذى الذكر ، بألف ولام وهو القرآن !!

معتزلى آخر .... أكان الله ولا قرآن !؟

أحمد ... أكان الله ولا علم !

معتزلى ... أليس الله خالق كل شيء ..

احمد ...... بلى !

المعتزلى ــ والقرآن شيء فهو مخلوق ..

احمــد ــ قال تعالى .. تدمر كل شيء بأمر ربها فهل دمرت الا ما أراد الله ..

(ينقطع المعتزلى)

معتزلى آخر ــ ما تقول فى حديث عمران بن حصين .. ان الله خلق الذكر .

أحمــد ــ روى هذا الحديث كما يلى :

« ان الله كتب الذكر ولم يرد ان الله خلق الذكر »

معتزلى ــ هناك حديث آخر يقول ماخلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى ..

احمــد ــ انما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والارض ولم يقع على القرآن ...

معتزلى ــ لقد قال الله تعالى .. انا جعلنــاه قرآنا عربيــا أفيكون مجعولا الا وهو مخلوق ..

احمــد ــ قال تعالى فجعلهم كعصف مأكول ؟ أيكون المعــنى فخلقهم ؟؟؟

احمد بن ابى دؤاد ـ ان تشبثك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق معناه انك تنسب الى الله جوارح تكلم بها كالمخلوقين وتشبيه الله بالمخلوقات كفر .

أحمد ـ هو أحد صمد لا شبيه له ولا عدل ، وهو كما وصف به نفسه .

المعتصم ـ ويحك ماتقول ؟

احمد ـ يا أمير المؤمنين اعطونى شيئا من كتاب الله وسنة رسوله ..

ابن أبى دؤاد ـ انه ضال مبتدع يا امير المؤمنين ..

ثم يخلو المجلس من أحمد فيصيح المعتصم انه لفقيه وانه لعالم وانى ليسرنى أن يكون معى يرد على أهل الملك ، ولئن أجابنى الى شىء مما أدعوه اليه لأطلقن عنه القيود بيدى ولأركبن اليه بجندى ولأقدمنه حتى أطأ عقبه ..

هنا يتأجج الحقد فى صدور القوم ويصيح أحدهم .. يا أمير المؤمنين ماذا تقول لابن عمك رسول الله اذا عاتبك يوم القيامة وقال لك تركت ابن حنبل يضلل الناس .

ويقول ثان .. لقد بلغ من سوء أدبه ان ادعى ان الله قد أمات المأمون انتقاما له ... وأذاع ذلك فى العامة فصدقوه ..

ويقول ثالث .. وانه وصف خليفة الله المأمون بالفاجر !. حتى عرف بذلك عند الناس فاقتله يا أمير المؤمنين ..

ـ المعتصم ـ وكيف نقتله وقد بلغنى أن الناس قد ملئوا الطرق والميادين ووقفوا بأبواب الشوارع وأخذوا أسلحتهم وهم يقولون .. ابن حنبل يفتن اليوم ..

ـ معتزلى .. ومتى كان رعاع الناس يا أمير المؤمنين حكما فيما لا يفهمون .. ان هذا أدعى الى ان نعاجله قبل ان يستفحل

أمره !! وقد أحضره المأمون من بغداد ليشهد مصرعه بطرسوس ...

وهكذا وقع الخليفة الساذج فريسة لحاشية متعصبة فأصدر أمره بالعقاب ..

ودنا الموعد الرهيب ..

كان ثبات الامام فى المناظرة موضع الدهشة والارتباك من مناظريه فقد حسبوا أنفسهم بجمعهم الحاشد وأسئلتهم المهيأة أمام انسان مضطرب جامد لا يتصرف فى حجة ولا يقدر على اقناع وخيل اليهم ان المعتصم سيحتقره احتقارا كريها حين يفحم فلا يجيب ، فانقلب الوضع فجأة الى غير مايظنون فان سألوه عن خلق القرآن تسألهم عن علم الله وان ذكروا له عاما خصصه أو حديثا مختلا صححه !! حتى اضطروا الى اللجاج فى أقيسة منطقية فقطع عليهم القول ، بطلب شىء من الكتاب والسنة ومناظر كهذا الرجل لا ينال بسهولة من خصمه ، بل لابد من سلاح آخر غير الجدل واللجاج فكان الدس واختلاق الأكاذيب عن أحمد فى المأمون سبيل ذلك وهو سبيل خطر يهيج عاطفة المعتصم ويستفز غضبه وتهوره !! فيصدر أمره بالعقاب السريع ولئن ثبت الامام فى ميدان الصراع الفكرى قد كان بثباته فى ميدان الصراع الجسمى — على ضعفه الواهن — أروع وأعجب فقد اختير له الأشداء من الجلادين والهائل المرعب من السياط وانطلقت النار ترعى البدن العليل دون خشية أو اشفاق واليك الماما موجزا ببعض ماكان !!

لقد انكشفت بصيرة أحمد عما سيناله فى غده فرأى من وراء الغيب ما أعد له من تعذيب وارهاق وكان يتمنى أن يضرب بالسيف مرة واحدة فيلقى الله دون أن يفتن وأخوف ماكان يخافه أن تأخذه السياط فتوجعه شدتها الملتهبة ايجاعا يضطر معه الى التفوه بما يريدون !! وفى صباح هذا اليوم الحرج دعا بخيط وشد به تكة سراويله كيلا تسقط من أثر الضرب فتنكشف سوءته ويتحدث بذلك الناس ثم حرص على ثلاث شعرات من آثار رسول الله صلى الله عليه

وسلم فضمها الى قميصه لتكون نورا وضيئا يهـديه فى ظلمات قبره ووسيلة طيبة للشفاعة ــ فى اعتقاده ــ يوم يقف بين يدى الله وابتدأ المجلس بالمناظرة فأصر أحمد على رأيه !!! ولن أستطيع أن أصـف ما نال الرجل الممتحن من ظلم فادح فى يومه فلأترك ذلك لولده صالح فقد نقله عن أبيه ورواه الذهبى قال (١) : قال صالح .. قال أبى ، لما جيء بالسياط نظر اليها المعتصم وقال ائتونى بغيرها ثم قال للجلادين .. تقدموا ، فجعل يتقدم الى الرجل منهم فيضربنى سوطين ، فيقـول له .. شد قطع الله يدك ، ثم يتنحى ويقوم الآخر فيضربنى سـوطين وهو يقول فى كل ذلك شد قطع الله يدك ، فلما ضربت تسـعة عشر سوطا قام الى ــ يعنى المعتصم ــ وقال يا أحمد علام تقتل نفسـك وانى والله عليك لشـفيق قال فجعـل عجيف ــ أحد الجـلادين ــ ينخسنى بقائمة بسيفه ويقول أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم وجعل بعضهم يقول .. ويلك ، الخليفة على رأسك قائم وقال بعضهم يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى ، اقتله وجعلوا يقولون يا أمير المؤمنين أنت صائم وانت فى الشمس قائم . فقال لى .. ويحك يا أحمد ماتقول ؟ فأقـول .. اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليـه وسـلم أقول به ، فرجع وجلس وقال للجلاد ... تقدم وأوجع ، قطـع الله يدك ، ثم قام الثانية فجعل يقول .. ويحك يا أحمد أجبنى فجعـلوا يقبلون على ويقولون .. ياأحمد امامك على رأسك قائم .. وجعل عبد الرحمن يقول .. من صنع من أصحابك فى هذا الامر ماتصنع ؟ وجعل المعتصم يقول .. ويحك أجبنى الى شيء لك فيه أدنى فـرج حتى أطلق عنك بيدى فقلت يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتـاب الله فيرجع ، ويقول للجلادين .. تقدموا ، فجعل الجـلاد يتقـدم ويضربنى سوطين ويتنحى وهو فى خلال ذلك يقول شد قطع الله يدك ، قال أبى فذهب عقلى فأفقت بعـد ذلك فاذا القيـود قد أطلقت عنى فقال لى رجل ممن حضر انا كببناك على وجهك وطرحناك على ظهرك ودسناك فما شعرت بذلك وأتونى بسويق فقالوا لى اشرب وتقيأ

(١) ترجمة أحمد ص ٤٧

فقلت لا أفطر ثم جيء بى الى دار اسحق بن ابراهيم فحضرت الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما انفتل من الصلاة قال لى .. صليت والدم يسيل فى ثوبك .. فقلت .. قد صلى عمر وجرحه يثعب دما .

هذه رواية أحمد .. وقد آثرت نقلها دون أن أتصرف فى تصويرها اذ شعرت بضيق نفسى يمنعنى أن أرسم هذا المشهد الظالم لانسان يعذب دون جريرة فوق أن رواية أحمد نفسها تخلو عن كل تزيد ومبالغة فأنت تستطيع أن تأخذ من سطورها القليلة فصولا دامية لمأساة أليمة تنفطر لها الأكباد .. وهى بعد مثل جليل للصبر فى ذات الله وعلى من يخترعون أقاصيص البطولة ان يقرءوا هذه القصة الواقعية ليعلموا أن فى دنيا الناس مايفوق غرائب الخيال ...

يا للايمان ، انسان يغمى عليه من السياط فى حمارة القيظ فاذا جيء له بماء صاح انى صائم .. ثم ينهض الى صلاة الظهر ويسأله السائل عن دمه الفائر فيستشهد بعمر ؟ ألا يذكرنا ذلك بموقفه اذ تقدم بين يدى المعتصم لامتحانه ، وهو يرى السيف والنطع ويلمح العيون تتطاير بالشرر فيسأل فقيها بين الحاضرين عن حديث رواه الشافعى فى مسح الخفين ونسيه احمد .. حتى ليصيح ابن أبى دؤاد متعجبا !!! انسان يسأل عن صحة حديث !! وأمامه السيف والنطع وعن يمينه وشماله الجلاد والسيف والسياط ! ذلك ايمان عجيب ..

لقد هاج العامة غداة ضرب احمد وجاءت الأنباء ترن فى أذن المعتصم ان الثورة توشك ان تهب فتراجع مأخوذا عن قتل الامام ، وأراد أن يسكن الثائرة فاستدعى عم أحمد وطلب اليه أن يصيح فى الجموع ... لقد استلمت ابن أخى سليما معافى ثم رأى الخليفة من الحزم أن يرسل للمريض الخائر طبيبا يقوم على رعايته وتضميد جروحه .. وقد اقترح عليه ابن أبى دؤاد أن يودع السجن بعد السياط فغضب المعتصم وصاح فى وجهه مستبشعا ثم رده الى داره وخلع عليه خلعا سنية !! ثم أمر عامله اسحق أن يستفسر عن صحته يوميا ، وأن يرفع أخبارها اليه ، ولعل خوف الخليفة من العامة مضافا الى ندمه اللاذع

وتأنيبه النفسى الثائر قد كان داعيا الى هذا المسلك المعتذر !! ومن الطريف ان أحمد قد باع الخلعة المهداة وتصدق بثمنها على الفقراء !!

على أن صبر احمد عند السياط قد آزره صبر آخر لدى العلاج فقد تعرض الى عذاب ممض قامت به المشارط الحادة دون هــوادة أو رضا بالتخدير والاستغفاء ، جاءه الطبيب فحدثه ان بجسمه لحما متعفنا لا مناص من قطعه ، وجاء بحديدة فجعل يعلق اللحم بها ويقطعه بسكين معه وهو صابر لذلك يحمد الله ويســبحه حتى برأ ولم يزل يتوجع حتى انتقل الى رحمة الله (١) .

هذه قصة الصبر العجيب التى مثلها أحمد ولعمرى لقــد آمن الرجل بمثل هان بازائها كل ما يلقــاه .. وانك لتبحث عن مفتــاح الثبات فى قضية أحمد فلا تجد غير الايمان فبايمانه الوطيد !! ســار الى لقاء المأمون غير مكترث بما يتهدده من أهوال .. وبايمانه الوطيد قابل الجدل فى معركة صاخبة بجدل هادىء رزين وبايمانه الوطيــد صبر على المشرط الجارح يقــد جســمه قدا دون تريث وابطاء .. وبايمانه الوطيد صار حديث الدنيا واعجاب الأجيال ..

واها على المعتصم .. لقد تردد ثم صــمم .. ثم ندم . ولولا وصية المأمون ما أقدم على أمثال هــذه الجريرة النــكراء!! ولكن لا ضير فقد قدم بجريرته العظيمة للأجيال المتعاقبة مثلا للرجولة يعز نظيره ، وأصبح ابن حنبل الصابر المثالى والطود الأشم والذروة التى لا تنال ، لقد دخل الامام بمحنته الكير المحرق وخرج كما يقول بشر ابن الحارث ذهبة حمراء .. وهكذا الرجال .

---

(١) ابن حنبل والمحنة ص ١٥٤ نقلا عن الحلية لابى نعيم

جنود مجهولون

لو ذهبت تعد الجنود المجهولين على فرض معرفتهم ــ فى كل حادثة من حوادث التاريخ لاستحال عليك أن تجد الى حصرهم من سبيل ، فهم مجهولون حقا بلا نزاع .. وقد اقتضت سنن المجتمع أن يظلوا هكذا مجهولين مستترين اذ أن ذاكرة الأيام أضأل من أن تتسع للجميع !!!

على أن هؤلاء المجهولين مع خفائهم الطامس هم أصحاب المواقف الحاسمة فى كل أمر ، وما الجنود المعروفون غير قادة سلطت عليهم الأضواء فاعتلوا قمة الشهرة !! وتردد حديثهم فى مسامع الأجيال ولو كانوا وحدهم فى الميدان دون المجهولين ما حسم أمر أو انتهت مشكلة .. ولكنهم ظفروا بنصيب الأسد فى الخلود وطارت أحاديث غيرهم أباديد !!

ففى محنة خلق القرآن مثلا سفكت دماء كثيرة لجنود بررة من المجهولين وما ظنك بمحنة تمتد ستة عشر عاما فى مصر ودمشق والكوفة وبغداد ، وفى كل يوم سؤال فقتل فدفن !! فاذا ذهبت تسأل التاريخ عن أسماء هؤلاء الشهداء على كثرتهم الكاثرة فلن تجد غير بضعة أشخاص !! مع ان الضحايا من أئمة الفقهاء وخيرة المحدثين ، ولم يكونوا من حشو العامة وسفلة الرعاع كما يقول خطاب المأمون!! فأين اذن حديث هؤلاء ؟ !!

لقد ذاع حديث الامام احمد فى محنته فكان شمسا كسفت ما حولها من نجوم .. ولعل اخلاص أحمد وثباته وما اليها من صفاته الحميدة قد كان سببا فى خلوده ــ واشتهاره ، فنحن لانستنكر عليه

صيته الذائع ولكننا تتـذكر هؤلاء المجهولين .. فنشـعر بكثير من العطف والرحمة والرثاء .. ونستمطر عليهم سحائب الرحمات ، وهى كما نرجوه هاميـة عليهم صباح مسـاء فى ملئهم العلوى الرحيب !!
ومع هذا الصمت المطبق عن مئات ذهبوا مستشهدين فى حومة جر اليها التسيطر واللجاج والطغيان !! !! فاننا نجد بين السطور المتشابكة أحاديث خاطفة عن أربعة رجال لقوا سوء المصير فى الدنيا وحسن القبول فى الآخرة ، وقد سجل التاريخ أسماءهم فى حواشى المحنة فلم يعودوا من المجهولين !! !! ولا يمكننا وقد أحطنا خبرا بما كابدوه أن نغفل الحديث عن ثباتهم الرائع وايمانهم العجيب ...

وهم بعد مثل متواضع لضحايا مجهولين لا يعـرفون بأسـماء وأوصاف بل طوى الزمن من حـديثهم ماطوى القبر من أجسـادهم فظلوا مستترين محتجبين ..

أول هؤلاء الاربعة ، محمد بن نوح وقـد سيق مع أحمد الى لقاء المأمون وكان شيخا هرما !! ! قيده الحديد فى قدميه ويديه وامتنع عنه الشراب والطعام على ضعف فى البنية ومرض فى الشيخوخة فلقى الموت مكفنا بقيوده وحديده وبكى عليه الامام أحر بكاء !!!

وثانى الاربعة ... الفقيه الحجة أبو يعقوب البويطى وقد حمل من مصر فى قيده الى بغداد وهو يقول ... والله لاموتن فى حديدى هذا حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون انه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ولئن دخلت على الواثق لاصدقنه القول وقد صدق ماعاهد الله عليه فشهر به أقذر تشهير اذ أركب بغلا فى عنقه غل وفى رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة فولاذية فيها قدر من الحديد زنته أربعون رطـلا !! وهو يصيح انمـا خلق الله الخلق (بكن) فاذا كانت كن مخلوقه فكأن مخلوقا خلق مخلوقا !! !! ثم رمى به فى السجن فمات فيه ...

وثالث الاربعة المحدث الرحالة الورع نعيم بن حماد يحضر من مصر فى خـلافة الواثق فيثبت على رأيه فى القـرآن ويجلى بالمنطق والحجة لانه كان معتزليا قبل أن يعشق الحديث فعرف طرق القياس

وبراهين الحجاج فلما ضاق به مناظروه حبسوه مصفدا فى أغلاله فمات فى السجن المظلم وله من ايمانه مصباح منير ...

أما الرابع فأجدر بشجاعته الباسلة أن تقف لديه وقفة تقضى بها حقوق رجولته الرائعة وايمانه العظيم ذلكم هو الفقيه المحدث الشهيد أحمد بن نصر الخزاعى .. ذو الحسب الاصيل فى قومه ، والكلمة المسموعة فى ذويه .. كان من طبقة الاساتذة بالقياس لاحمد بن حنبل .. فهو تلميذ مالك بن أنس واستاذ يحيى بن معين .. ولقومه رياسة فى الدولة فهم أرباب المناصب العالية والجاه العريق ، وحين قامت محنة القرآن لم يجبن عن اظهار رأيه بل أيد الامام أحمد تأييدا رائعا بالعقل والنقل وجمع حوله الناس ليرشدهم الى مايعتقد !! ولكن الدولة لم تحاربه بادىء الامر ، ويخيل الى ان ابن أبى دؤاد كان يعجب به لسبب ما فتركه كما يريد بدليل أنه تشفع لدى الواثق فيه حين مصرعه فلم يلتفت الى شفاعته .. ولقى مصيره المحتوم فى ثبات غريب ..

أعلن أحمد بن نصر رأيه فى القرآن ، وجاهر بخصام ذوى السيطرة من أرباب الطغيان ولو وقف به الامر عند ذلك ماتعرض له انسان ، ولكنه كان رجل بطولة وحمية — على تقدم سنه التى جاوزت التسعين — فرأى أن السكوت على الجور مهانة ومذلة وجمع حوله الانصار فى ثورة سياسية تعصف بالبغاة من المتحكمين وأخذ للامر عدته فى حزم ويقين .. ولكن مؤامراته الجريئة قد ذاع أمرها والاسباب تخرج عن ارادته وهمته فدهمه الجند وسيق الى المحاكمة ، ومن العجيب أن الواثق لم يتعرض لسؤاله عن الثورة بل سأله عن رأيه فى القرآن ورؤية الله فأجاب بما يعتقد غير هياب ولا وجل .. واستشاط الخليفة غضبا فنهض الى سيفه ليقدرقبته فلم يستطع فساعده جلاده ذو البطش الشديد فأجهز على الشهيد فى لحظات ... ثم حملت الرأس فنصبت على جزع مائل بالجانب الشرقى ببغداد وظلت هكذا ستسنوات .. حتى سمح بانزالها المتوكل ....

ولك أن تقدر أثر هذا المصرع الاليم فى نفوس العامة مما حاكوه من الاساطير حول هذا البطل العظيم فقد تحدث أناس انهم سمعوا الرأس المصلوب يقرأ فى حندس الليل قول الله .. « ألم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون » ...

وانهم كانوا يذهبون الى قبره بعد دفنه فيسمعون الرأس يقرأ القرآن .. وأن لحده قد حفر بعد أمد طويل فوجد الرأس سليما لم يدركه أقل فناء وتلك الاساطير الجذابة لن تنسج الا حول شخصية لها قداستها فى النفوس وقد كان ابن حنبل اذا ذكر حديث ابن نصر يترحم عليه ويقول فى أسف : رحمه الله ماكان أسخاه لقد جاد بنفسه .

فمن مبلغ عشاق البطولة أن شيخا ناهز المائة قد قام بثورة على الظالمين ثم شاءت ظروف ثورته أن يقدم للمحاكمة فيصر على موقفه دون تردد أو انسحاب وكأن دم الشباب قد تدفق فى عروقه اذ ذاك فصال غير وجل أو هياب .. ذلك حدث جليل ..

هذا هو حديث الاربعة المذكورين .. وبقى حديث جندى مجهول عرفت بلدته ونسى اسمه ، مع انه كان بمنطقه المفحم وحجته البالغة وشجاعته النافذة سببا وطيدا فى جسم الشر والتعجل بانتهاء المحنة .. ورجل حسم بهمته العالية هذا الخطر الرهيب جدير أن يذكر ويعلم !! ولكنه التاريخ يعى من يريد ! فما حديث هذا البطل العجيب .

لقد نقل الى الواثق وشيعته أن شيخا من « اذنه » يجاهر بما لا يرضون فصدر أمر باحضاره ومحاكمته !! وجاء الرجل وفى نيته أن يستشهد فى سبيل الله ، فليس يبالى بأحد أمامه وعليه أن يجهر بالحق دون تلجلج واضطراب ، وانسان هذه عزيمته لابد أن يترك صداه المجلجل ، ويلوح لى أن الواثق كان قد استمع الى الكثير من جراءته ومجاهرته بكل مايعتقد فأحب أن يشهد الامتحان بنفسه ليرى أى بطل يصارع وقد حضر رءوس الاعتزال ودار النقاش على هذا النحو ..

أحمد بن أبى دؤاد ـ ماتقول فى القرآن ؟

الجندى المجهول ... دعنى أسألك قبل أن تسألنى ، هل كتم محمد شيئا من الرسالة ؟

ابن أبى دؤاد ... لا لم يكتم شيئا ؟

ـ أتحفظ قول الله تعالى .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ..

ـ نعم أحفظ ذلك دون نزاع ..

ـ هل دعا الرسول الى القول بخلق القرآن مع انه لم يكتم شيئا ؟؟

ـ لم يدع الى ذلك ..

فيلتفت الرجل الى الواثق ويقول فى لهجة حازمة .. سجل ذلك عليه ثم يسأل أحمد .

ـ هل علم الرسول شيئا عما تقول من خلق القرآن ؟؟

ـ أحمد فى تردد .... نعم ..

ـ هل دعا الناس الى الاقرار بهذا القول ؟؟

ـ لم يدع الى ذلك ...

ـ هل علم ذلك الصحابة والخلفاء الراشدون ؟؟

ـ لم يعلموه ...

ـ واذا لم يعلموه فكيف نعلمه .. ثم يلتفت الى الواثق ويقول فى لهجة حازمة ...

ـ سجل ذلك عليه : ويتدارك أحمد فيقول ....

ـ انهم علموه ولكن لم يذيعوه ...

ـ واذا لم يذيعوه فكيف نذيعه نحن ونعـذب عليه الناس ؟؟
ثم يومىء الى الواثق ويقول : سجل ذلك عليه وينظر الواثق فيجـد أحمد مضطربا فيأمر باطلاق الرجل نفوره !! ويعلن انتهاء المحاكمة ثم يخلو الى نفسه فيقول ... شىء لم يدع اليه رسـول الله صلى الله عليه وسلم ولا الخلفاء من بعـده فكيف نعـذب عليه الناس !! وكأن حجابا كثيفا قد ارتفع عن عينيه فجأة فأمر بالتراجع عما يسير فيـه القوم ، وأخذ يبدى لابن أبى دؤاد وشيعته كثيرا من النقيض وازورار

هذا الموقف الجرىء لجندى مجهول ، قد تواترت الكتب التاريخية على تسجيله ورصده ، بل ان الخليفة المهتدى بالله كان من شـهوده وحدث به فى مجلسه آسفا ألا يكون قد عرف اسم صاحبـه وأثـره العميق فى نفس الواثق !! ونحن لانستطيع تكـذيب حـادث طبيعى أجمع الرواة على تدوينـه ، دون أن يلوح فيـه شىء من الشـذوذ والاستغراب !! اذ ان رد الروايات التاريخية لايكون الا لدليل يقوم على دحضها !! ونحن لانمنع أن يكون هذا المجلس حقيقة واقعة !!!!

فهو بنقاشه ورده أقرب مايكون الى الصدق والاقناع ، ولكنا نسأل عن هذا البطل من يكون فلانجد المجيب ..

وقد يقول قائل .. ان رجلا يترك هذا الاثر لابد أن يدون اسمه ويعلو صيته فلايصبح بين النكرات المجهولين ونحن نقـول ان ذلك يكون طبيعيا لو صمم الواثق على مجاهرة ابى دؤاد بالقطيعة مباشرة دون أن يتريث أو ينتظر ، فيعلو صوت منافسه ويرن صداه ولكن الامر لم يكن كذلك فقد تردد الواثق ووقع فى حيرة مدهشة ثم أخذ ينقبض شيئا فشيئا عن حاشيته مكتفيا باطلاق الرجل دون أن يعلم من يكون! ان الحياة حظوظ وأقسام !! ففى كل زمن نرى النباهة لقوم والخمول عند آخرين !! ونحن لانلتاع اذا وجدنا الممتاز المرموق ــ كما يحدث كثيرا ــ قد أخذ مكانه بجده ونضاله كأحمد بن حنبل وغيره من أبطال

التاريخ ذوى النباهة والتبجيـل ولكنا نلتاع كثيرا حين نرى الكفء الاصيل يتزحزح عن مكانه مطمورا فى ظلمات الجحـود كما يحـدث كثيرا دون أن ينال مايستحق من تنويه .. هنا تكون اللوعة المؤسية والاسف الحزين وكم فى الكون من جنود مجهولين ذهبت أسماؤهم وبقيت آثارهم فكانت عطرا قائما يذكر بالزهـور الناضرة والروض الاريض ...

ـ فلنقدس جميعا ـ بهذه المناسبة الطـارئة ـ ذكـرى الجنـود المجهولين ....

جبهة عالية

مات خليفة وجاء خليفة ـ ذهب الواثق وأتى المتوكل .. وقد بادر برفع المحنة وانقلب الامر بين عشيه وضحاها من النقيض الى النقيض ، فبعد أن كان رءوس المعتزلة كل شيء فى الدولة أصبحوا مكان الاضطهاد والعسف وكما تدين تدان ، كانت قلوب العامة فى الامة الاسلامية تغلى بالحقد والغضب والكراهية ... للقائمين بالفتنة، ففى كل صدر آهة حبيسة ، وفى كل عين دمعة على هؤلاء الشهداء الذين يقتلون فى غير جرم !! فحين كشف المتوكل المحنة هتفت بذكره القلوب واجتمع اليه الملأ وأصبح من رضا الرعية فى حرز مكين !! حتى قال بعض الفقهاء ... الخلفاء ثلاثة أبوبكر قاتل أهل الردة حتى استجابوا له ، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بنى امية ، والمتوكل محا البدع واظهر السنة .....

ولكن من هو المتوكل الذى يقرن بأبى بكر الصديق ؟ انك لتدهش أيما دهش حين ـ تعلم أنه كان ـ هو الآخر طاغية سفاكا ظالما وكان متلافا مبذرا ينفق أموال المسلمين فى ملذاته وشهواته كما يشاء ويضطهد الاحرار من المفكرين اشنع اضطهاد ويعامل أهل الذمة معاملة الخدم والعبيد ، حتى عرف لدى المؤرخين بنيرون العرب .. ومع هذا كله فقد أحبته العامة وقرنته بأبى بكر على لسان قاضى البصرة الفقيه ابراهيم محمد بن التميمى (١) وذلك لسبب واحد .. انه كشف المحنة .. وأبطل الكلام فى خلق القرآن وحسبه ذاك ...

واقرأ ماذكره ياقوت فى معجمه لنقف على جانب من تبذيره وتهوره .. قال ... ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الابنية

(١) المقريزى فى المقفى

الجلية مثل مابناه المتوكل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف الف درهم والقصر المختار انفق عليهخمسةآلاف الف درهم والقصر الوحيد انفق عليه الفى الف درهم والقصر الفريد انفق عليه عشرة آلاف درهم والقصر المليح انفق عليه خمسة آلاف الفدرهم والقصرالمعروفالمتوكلية وهو الذىيقالله «الماحوزة» انفقعليهخمسين الف الف درهم وقصر البهو انفق عليه خمسة وعشرين الف الف درهم وقصر اللؤلؤ انفق عليه خمسة آلاف الف درهم فذلك الجميع مائتا الف الف واربع وتسعون الف درهم !!

ويقول الاستاذ حسن خليفة فى كتاب الدولة العباسية (١) وقد كان قاسى القلب ظالما حتى اطلق عليه المؤرخون اسم «نيرون المسلمين» وفى عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية اذ ترك أمور الدولة لقواده وانغمس فى اللذات والشراب وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين وساءت الاحوال وأعاد الى الفقهاء وأهل السنة نفوذهم وطرد أهــل الاعتزال من الوظائف العامة واضطهد الطوائف الاخرى وألزمهم ان يلبسوا لباسا خاصا بهم ، ومن كان عندهم من العبيد ، وحرم عليهم ركوب الخيل وأمر ان يضعوا على وجهات منازلهم صورة ابليس وألا ترتفع قبورهم عن سطح الارض هذا وقد هدم قبر الحسين بكربلاء ، وهدم ماحــوله من الدور ومنع الناس من زيارته واصبح صــحراء مقفرة ...

قال الحصرى فى زهر الآداب ... كان المتوكل أول من اظهر من خلفاء بنى العباس الانهمــاك على شهوته وكان أصــحابه يستخفون بحضرته وكان يهاتر الجلساء ويفاخر الرؤساء وهو مع ذلك محبب من قلوب الناس اذ أمات ماأحياه الواثق من اظهار الاعتزال والجدال . »
هذا هو المتوكل .. نسى له الناس كل جريرة وقرنه الفقهاء بأبى بكر واجتمعت قلوب العامة حــوله ، كل ذلك لانه رفع المحنــة واعاد الى

(١) ص ١٤٧

الفقهاء وأهل السنة نفوذهم وطرد أهل الاعتزال من مناصبهم الرفيعة، فما موقف الامام احمد منه وما موقفه من الامام احمد بعد ذلك ..

لو كان أحمد كسائر الناس ممن يحملون معانى الحرص والرغبة والانتقام .. لسارع اليه وقد دعاه ، وهش لعطائه وقد غمره ، .ولكن أحمد ذا الجبهة العالية لايذل لغير الله ، ولايحب انسانا لمأرب شخصى أو دافع انتقامى ، لقد نظر الى المتوكل من وجهته الاسلامية فوجده قد أبطل المحنة من ناحية ولكنه عكف على الفسوق والبطش من ناحية ثانية ، ورجل هذا شأنه لايليق به أن يقبل عطيته أو يسعى الى لقائه.. لان الامر فى ذلك أمر الاسلام لا أحمد ، فمهما تودد الى الامام وأغرق ذويه وأقرباءه بالمال والهبات فهو فى رأيه حائد عن تعاليم الاسلام فى اكثر أموره !! واذن فالنجاة النجاة ...

يالله ، لهذه الروح الشماء تلك التى ترتفع عن رغبات الحياة وترتقى الى أفق العزة والكمال !! ماغناء الخليفة وماعطاياه ؟! ان كان ملوث الصحيفة بالاوزار ؟؟ ولماذا نود انسانا لانه رفع عنا المحنة وقد سلطها على قوم آخرين ! لسواء لدى الامام المثالى أن ينزل به العقاب أو ينزل بسواه فاما ان يكشف الظلم مرة واحدة واما ان تظل القطيعة مدى الايام .. تلك طريقة المثاليين من الهداة ، وهذا خلق العاملين من ورثة الانبياء ...

كان احمد يمثل فى ابائه موقف العيوف الغيور الذى لايسمح لنفسه ان يزور ظالما أو أن يترضاه .. وكان موقف المتوكل منه على النقيض فقد اندفع الى مرضاة الامام ، بشتى الوسائل واحتال لذلك أبرع الحيل ، وكان يشعر فى أعماقه بفرحة سارة حين تبلغه كلمة تحمل ارتياح الامام وقبوله وكأنه غنم بذلك دولة كبيرة تضاف الى دولته ذات العرض والطول فأى سلطان أذل المتوكل لأحمد ؟ وأية قوة دافقة جذبته الى هذا الاتجاه ؟ ...

لقد أحس ندماء المتوكل باندفاعه نحو الامام ، وظنوا أن احمد سيسارع الى القصر فى ابتهاج ، وسيكون صاحب الكلمة الاولى ،

والرأى النافذ فتضيع مكانتهم بازائه ، فلابد من الدسيسة المحكمة ليتزحزح بها مكان هذا المنافس العنيد ، ومن ثم فقد اتجهوا الى المتوكل يعلنون اليه ان ابن حنبل يحتفظ فى بيته بأحد العلويين من خصوم المتوكل ولم يطق الخليفة صبرا على ماسمع فأمر بتفتيش بيت أحمد وأعد فريقا من النسوة مع الرجال ليقمن بتفتيش الاماكن الخاصة وجاءت النتيجة بما يبرىء ساحة الامام ...

فتأكدت مكانته لدى المتوكل وصاح فى أتباعه لو بعث المعتصم واعلن لى شيئا فى احمد ماصدقته وكان ذلك بمثابة انذار قوى تضعضع أمامه المغرضون وجلس الامام فى منزله ممسيا فجاءه رسول الخليفة يحمل جائزة مالية كبيرة — قدرها عشرة آلاف درهم وتوقع أن يرى البهجة تغمر وجه الرجل والابتسام يشع من ثناياه ولكنه رأى غير ماتوقع فقد أطرق (الامام) عابسا ؟ وقال فى نفسه اذا رفضت الجائزة فسيكون ذلك منفذا للدس والوقيعة لدى الوصوليين واذا قبلتها فسأدنس يدى بمال مغصوب لاأستحقه ولا أرانى اهلا لاستغلاله ...

ثم هداه تفكيره أن يقبل الهدية فاذا انصرف رسول الخليفة فرقها على الفقراء والمساكين من ذوى الحاجة والحرمان ، وكان ذلك حلا موفقا بادر بتنفيذه وأراح ضميره من الوخز والتأنيب ...

ظن الامام أن المسألة قد وقفت عند هذا الحد ، ولكن رسول الخليفة يحضر لدعوته من بغداد ، الى سر من رأى ليرى الخليفة ويحدث الناس بالقرب منه وكان خبرا صاعقا تفتت له نياط أحمد فهو يعلم أن القرب من الظلمة ابتلاء ومحنة ، وقد ابتلى بالعذاب المهين من المأمون والمعتصم وبالاضطهاد المرهق من الواثق وحل الآن ابتلاء جديد بالنعمة والعطاء من المتوكل .. وهو على نفس الامام أشق وأوجع لان النفس البشرية تتوق الى لذات العيش فهى عون على صاحبها لاله ...

وأخشى مايحذره الرجل أن تميل نفسه الى شىء من زخرف الحياة

فتكون الكارثة الدهياء هذا هم الرجل وشجاه ... ولعله فى باطن أمره يرى أن المتوكل يتخذ من ترضيته وسيلة الى استقرار ملكه وتثبيت خلافته فيكون بذلك دعامة قوية لقاهر باطش لايلتزم قواعد التشريع وتلك مذلة خطيرة يحذر أحمد ان يهوى اليها فى أيامه الاخيرة وكان يقول لجلسائه لقد تمنيت الموت فى محنة المعتصم بالنقمة وها أنذا أتمناه فى محنة المتوكل بالنعمة ، فكلتاهما داهية نكراء !! مهما يكن من شىء فقد حاول أحمد أن يتخلص من دعوة الخليفة ! ولكن على ابن الجهم صاح به : الخلفاء لايصبرون على ذلك فالله الله فى نفسك .. ؟؟

وكان لابد من المسير

وكان ميعاد اللقاء فأعد له القصر حلة خاصة يرتديها فى حضرة أمير المؤمنين ولكنه صمم على رفضها تصميما تاما وأكبر الظن أنه شاهد بها خيوطا ذهبية لايستحل لبسها ، وقد خلع عليه الخليفة خلعة ثمينة ذات قيمة كبيرة فلما عاد الى منزله باعها وفرق ثمنها على الفقراء من أولاد المهاجرين والانصار مستغفرا عما يكون قد أسلف من الذنب .. وقد بلغ ذلك المتوكل كما بلغه ما قام به من تفريق المال فسكت متأثرا ولكن على بن الجهم يهتف به .. « أحمد لا يأكل فى اليوم غير رغيف جاف فماذا يصنع بالمال يامولاى .. واذ ذاك صفا خاطر المتوكل وطاب نفسا عن صنيع أحمد ثم أمر لاولاده بأربعة آلاف درهم فى كل شهر ، دون أن يعلم الامام فيرتاع ..

أترى المتوكل قد وقف عند هذا الحد ؟ انه أمر بشراء دار لاحمد فاستعظم وتأبى وكتب رقعة الى المتوكل يستعفى بها من هذا البلاء ثم وجد نفسه أمام موائد فاخرة تعد الى اسرته وأتباعه كل يوم فبكى واستعبر واصر على منعها فقبل الخليفة وجعل يقدم لنجله مبلغ ثلاثة آلاف درهم شهريا دون علمه لينفق على طعام العائلة — بمنأى عن عين الامام ، أما أحمد فقد لزم الصوم وجعل يواصل ويفطر كل ثلاثة أيام على ثمن سويق وبعض الماء ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة على رغيف

وليلة لايفطر حتى ضعفت قوته وجاءه الرسول يطلب أن يراه الخليفة مرة ثانية فاستعفى وانك لتلمس شعوره النفسى مما ننقله اليك فى هذا الصدد ، ففيه أبلغ عظة للاعتبار ...

قال صالح بن أحمد .. وأمر المتوكل أن تشترى لنا دار فقال ياصالح قلت لبيك ..

قال .. لئن أقررت لهم بشراء دار لتكونن القطيعة بينى وبينكم انما يريدون أن يصيروا هذا البلد لى مأوى ومسكنا فلم نزل نـدفع شراء الدار حتى اندفع (١) ...

وجعلت رسل المتوكل تأتيه فيسألونه عن خبره ويصيرون اليـه فيقولون هو ضعيف ـ وفى خلال ذلك يقولون ... ياأبا عبد الله لابد من أن يراك وجاءه يعقوب فقال .

ياأبا عبد الله أمير المؤمنين مشتاق اليك ويقول .. انظـر يوما تصير فيه ، أى يوم هو حتى أعرفه فقال ذلك اليكم فقال يوم الاربعـاء يوم خال وخرج يعقوب ... فلما كان من الغـد جاء فقال .. البشرى ياأبا عبد الله أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول .. لقد أعفيتك عن لبس السواد والركوب الى ولاة العهـود والى الدار فان شئت فالبس القطن وإن شئت فالبس الصوف ، فجعل يحمد الله على ذلك ..

وكان يختم القرآن من جمعة الى جمعة واذا ختم دعا فيدعو ونؤمن ثم قال انمـا يريدون أن أحـدث ، ويكون هذا البلد حبسى وانما كان سبب الذين أقاموا بهذا البلد أنهم أعطوا فقبلوا وأمروا فحدثوا وجعل ابى يقول .. والله لقد تمنيت الموت فى الامر الذى كان وانى لأتمنى الموت فى هذا وذاك ان هذا فتنه الدنيا .. وذاك كان فتنة الدين ثم جعل يضم أصابع يده ويقول .. لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها ثم يفتح أصابعه !! وكان المتوكل يوجه فى كل وقت يسأله عن حاله وكان فى خلال ذلك يأمر لنا بالمال ويقول يوصل اليهم ولا

---

(١) ترجمة الامام احمد للذهبى

يعلم شـيخهم فيغتم .. مايريد منهم ؟ وقد قالوا للمتوكل .. انه لايأكل من طعامك ولا يجلس على فراشك ويحرم الذى تشرب .. فقال لهم لو نشر المعتصم وقال فيه شيئا لم أقبل منه ؟ ..

فماذا يرى القارىء فى ذلك ...

أمير المؤمنين يطلب لقاءه فيصر على الامتناع وقد كان فقهاء السلف يقابلون الخلفاء ولايتحرجون ولكن أحمد ذو ضمير حساس قلق فهو يرى فى لقاء الطغاة وزرا بالغا وحرجا دونه كل حرج ، وأمير المؤمنين يتنازل عن لقائه ثم يطلب منه أن يقيم فى بلده ـ فيأبى كل الأباءويرى أن قرب المسكن مدعاة للزيارة والاختلاط وقد يتخذ وسيلة لاقناع الرعية فيعرفون أن امام أهل السنة يؤيد الرجل فى نزواته وأهوائه ...

وتلك شنيعة لايطيقها أحمد بحال !! ولو أنه قابل الخليفة فوعظه كما فعل من تقدمه من السلف ، ولو أنه جاوره وجهر بكلمة الحق كما تعود أن يجهر لما كان فى ذلك حرج فى تقواه ولكنه الاحساس الرهيف والضمير اللوام ...

على أن النزاع قد اشتجر بين أحمد وأسرته فقد وجدهم غارقين فى النعمة ..

وعرف أن ذلك بسببه ، فقاطع ودابر وأمر ابنيه وعمه أن يبرحوا داره ، حتى انه مرض ذات ليلة فاحتاج الى أن يأكل باستشارة الطبيب قرعة مشوية !! فقدمت اليه وقبل أن يأكل علم انها شويت فى تنور ولده صالح فأبى وامتنع !!!! وقال : يأكل من مال المتوكل ثم آكل طعاما يشوى لديه !! ؟

ذلك لن يكون ؟ ويبلغ هذا كله الي الخليفة فيقبله دون غضب ، وأسائل نفسى ؟

كيف خنع المتوكل هذا الخنوع !!! ؟ وماعهدناه فى استعلائه ورياسته ذا تهاون واغضاء يخيل الى أنه اعتقد فى أعماق نفسه أن

الامام موصول السبب بالسماء وان غضبه على المأمون والمعتصم والواثق قد عجل بنهايتهم فى سنوات فحاول جهده أن يسترضيه !!!! وقد تحمل ترفعه واباءه بصدر رحب وقلب سليم !!!! ولن نقول ان غضب أحمد على هؤلاء قد عجل بنهايتهم ، فكل شىء يجرى بمقدار ولكننا نعرف مدى تأثر العواطف بالمظنونات !! ونرى ان التفاؤل كالتشاؤم كثيرا مايحدث اثره الحاسم فى النفس فيقلب اتجاهها ويبدل منهجها وهذا ماحصل للمتوكل فقد غير سلوكه المتعاظم مع أحمد وحده ، لظن قام بخاطره ومكث يسترضيه ويرتجيه حتى أدركته الوفاة !!!!

على ان خلال الامام وحدها كانت تعجب وتروع ومما لاشك فيه أن المتوكل قد عرف ثباته العجيب فى محنته ، وسمع عن بطولته وتصميمه مازاده هيبة وارتفاعا فى عينيه ، وقد لمس بنفسه تساميه الرفيع لما يدهش ويروع فمع رفضه لكل عطاء يوجهه !!!! ومع تمسكه بتقشفه الزاهد وانطوائه ، وقف من ابن أبى دؤاد يدعو الى الدهشة والاستغراب !!!! اذ ان ابى دؤاد خصمه الألد وقد حرص المعتصم على قتله !!!! وقال ان دمه فى رقبته ، كما حاول جاهدا أن يحمل الواثق على تعذيبه فأخفق !!!! فلما نكبه المتوكل وسجنه بعث الى ابن حنبل ليبدى رأيه فى غريمه الألد واتنظر الناس أن يفتى امام السنة باعدامه كما أعدم مئات الارواح ولكن الامام يترفع ويتسامى فلايقول شيئا يضر غريمه ويسأله الناس فى ذلك فيقول لقد جعلت كل من آذانى فى حل منى واحتسبت اجرى لله وحده ... فكيف اتجه الى الانتقام !! !! !! ؟

ونحن نرى من العسر الشديد أن ينزل الناس عن غضبهم المكين !! !! ولكن أحمد غير الناس وقد عرف أنه اوذى فى الله فلم يشأ أن يكدر مشوبته بشىء ولعلك لو بحثت فى خوارق العفو ومعجزات الصفح ماوجدت نظيرا لذلك غير الشاذ النادر !! !!

وقد كان أحمد بمثاليته الخارقة شاذا بين قومه وعهده فكيف

يضطرد مع الناس فى قياس ؟! • لقد كان أحمد فى سلوكه مع المتوكل يجابه محنة خطيرة لاتقل عن محنته الاولى مع المعتصم ، اذ أنه فى محنته الثانية يواجه بالنعيم والترف ، والنفس الانسانية أمارة بالسوء مدفوعة الى المغريات فاذا انتصر عليها صاحبها انتصارا باهرا كما فعل أحمد فقد قهر كل جانب بشرى ، وتجرد من كل غريزة أرضية ، ودون ذلك صراع رهيب وعراك ثائر لايقف أمامه غير الصفوة من الاخيار •

أما المحنة الاولى فقد وقر فى نفس الامام انه سيحوز فيها أجر الشهادة لدى الله ، فكان ذلك سببا قويا فى تمسكه واستعصامه !!!!

وتحمل التعذيب المرهق بنفس راضية وقلب مطمئن فكان بطلا فى العذاب تحت السياط كما صار بطلا مثاليا يترفع عن الميول والاهواء •••

أجل لقد نسى الرجل أرضيته فحلق فى السماء !!!! وكذلك الصفوة من العظماء !!

استفهام

هذه آراء أحمد فى طائفة من المسائل الكلامية التى احتدم النقاش حولها فى عصره واضطر على كره منه أن يقول كلمته فيها ولم نشأ أن نسرد سردا علميا يفضى الى الكد والملال ولكننا تخيلنا هذا المجلس لنبرز فيه آراء الامام كما بينها للناس متيحين للقارىء ما أمكننا من متعة الحوار وسهولة العرض ...

خرج الامام الى مصلاه قبيل الفجر وأدى تحية المسجد فى خشوع ثم التفت عن يمينه فوجد ثلاثة من تلاميذه هم ولده عبدالله وأبو بكر الأثرم وابراهيم الحربى فأقبلوا عليه مسلمين وجلسوا يستمعون ما يتلى من القرآن الكريم ...

وكان من العادة المتبعة اذ ذاك أن يستمع المسلمون لقرآن الفجر من تال حسن الصوت جميل الاداء ، ولليل سكون يبعث الجلال والخشوع ولنسيم السحر اذ يمضى فى رحبة المسجد وفنائه لمسات منعشة توقظ القلوب وتحيى المشاعر !! يسود الصمت الرائع اذ تخشع الاصوات فلاتسمع غير القرآن !! !! وكم للنفس اذ ذاك من سبحات علوية فهى من نور القرآن فى أشعة تتماوج !! فالمعانى تتكشف وتتضح وكأنها لم تكن معروفة قبل الآن والالفاظ تشدو متناغمة فى موسيقية رائعة تميل اليها الافئدة وتنشرح بها الصدور !! حتى اذا سمع صوت المؤذن نهض الجميع للصلاة فرحين ..

وقام الامام الى محرابه فكبر فى عزم وتصميم وكبر خلفه المصلون خاشعين مبتهلين . ورف على المسجد جلال سحرى كاد ينقل الناس من الارض الى السماء حتى انقضت الصلاة فى طمأنينة ووقار ونهض كل

الى شأنه ولم يبق بالمسجد الفسيح غير أحمد وتلاميــذه الثلاثة من حوله ، وفى الاركان المتباعدة أناس يأتون فيصلون ثم يبرحــونوهم. الامام أن يسمع من ولده عبد الله بعض ماحفظه الليلة الماضــية من الحديث ولكن أبا بكر الاثرم يشير فى أدب كمن يطلب الكلام فيهتف به أحمد ، قل ماتشاء :

أبو بكر ... أسمعت مقرىء الفجر يتلو كلام الله ؟ .

أحمد ... نعم وقد حلق بالارواح وأمتع النفوس » ..

أبو بكر ... سمعت منه آية جليلة لا يزال عقلى متـأثرا بهـا حتى الآن .

أحمد ... أية آية تريد فكل كلام الله مؤثر جذاب .. ؟

أبو بكر ... وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة

أحمد ... وماذا ترى فى هذا القول الصريح .. فى كتاب لايأتيه الباطل .؟

أبو بكر ... (فى تردد) ان المعتزلة ينكرون رؤية الله ..

عبد الله يتدارك .. والدى يكره جدال المعتزلة ؛ فعد عن ذاك

أبو بكر ... ليس هذا جدالا ولكنه استفهام

ابراهيم ... فاذا لم يرد على استفهامك فلماذا تحرج نفسك ؟

الامام أحمد ... أبو بكر مستفهم ينشد الحق وليس مجادلا يلج فى الباطل وسأناقشه فاسأله ؛ وما دليل أهل الاعتزال ؟

أبو بكر ... يتمسكون بقـول الله لا تدركه الابصار وهـو يدرك الابصار ؛ فهذا نص بنص .

أحمد ... النص دائما يفسره الحديث الشريف وقـد جاء بثبوت رؤية الله .

أبو بكر ... وماذا تقول فى تفسير هذه الآية ؟

أحمد .. لا تدركه الابصار فى الحياة الدنيا أما فى الآخرة فوجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة وصدق الله

ابراهيم ... لديهم دليل عقلى آخر فهم يقولون ان الرؤيةتستلزم مكانا وجسما وتعالى الله عن ذلك .

أحمد ... هم يقيسون الله بالانسان وليس كمثله شىء فالله يرى دون مكان أو جسم !!!! ولا نعلم كيف يكون ذاك ...

أبو بكر ــ لقد نفى المعتزلة صفات المعانى لهذه العلة فهم يتوهمون أن الصفة تقتضى موصوفا !! فيكون الله كالعباد صفة وموصوفا .

أحمد ــ ليس كمثله شىء بنص القرآن !!! فصفات المعانى ثابتة لله ولكنها لا تقتضى أى شىء فهــو موصــوف بذلك على نحو لا نعلمه عــلى الاطلاق ...

ابراهيم ــ اذن كل مافى الكتاب والسنة ثابت لله .

أحمد ــ ولكننا لانعلم كيفية ووصفا ولانقيس بشرا بآله ..

أبو بكر ــ لى سؤال آخر ..

عبد الله ــ كفى فقد أضجرت ..

أحمد ــ دعه ياعبد الله فهو مستفهم لا مجادل وفى صدرى انشراح للاجابة الآن ..

ابراهيم ــ ذلك توفيق من عند الله ..

أبو بكر ــ ماحكم من يرتكب الكبيرة من المسلمين .. ؟

أحمد ــ أنعرف نحن صنيع الله ؟ أمره الى ربه ان شاء عذبه وانشاء عفا عنه ..

أبو بكر ــ المعتزلةيقولون : مرتكب الكبيرةليس بمؤمنوليس بكافر فهو فى منزلته بين المنزلتين ..

أحمد (يصمت) ..

ابراهيم ــ والخوارج يقولون : أكثر من ذلك فهم يزعمــون أنه كافر عن يقين ..

أحمد ــ مادليلهم من السنة والكتاب .. ؟

أبو بكر ــ أدلة غير صريحة ولكنها تأويل وتعليل ..

أحمد ــ لاأحب أن أسمع لفظا فى كتاب الله .. دعونا ممايقولون

أبو بكر ــ لأبى حنيفة رأى يتصل بهذا الموضوع .

أحمد ــ أحب أن أسمع كلام أبى حنيفة ودليله ..

عبد الله ــ هو من أهل الرأى يا أبتاه ..

أحمد ــ الرأى شىء ؛ ولجاجة المعتزلة شىء آخر ؛ صــاحب الرأى فقيه يتحدث فى الفروع فيخطىء ويصيب ، والمعــتزلى يتكلم عن الله ويصفه ويشتغل بفلسفته ، فأين أبو حنيفة من هؤلاء ..؟

أبو بكر ــ انه يقول ان الايمان لايزيد ولاينقص ..

ابراهيم ــ ومادخل ذلك فى مرتكب الكبيرة . ؟

أبو بكر ــ الأمر واضح فاذا كان الايمان لايزيد ولا ينقص كما يرى أبو حنيفة فمرتكب الكبيرة لاينقص ايمانه ..

أحمد ــ كأن أبا حنيفة لايعد العمل جزءا من الايمان .؟

أبو بكر ــ هو ذاك ..

أحمد (محتدا) أرى أن الايمان قول وعمل ..

أبو بكر ــ اذن هو ينقص ويزيد ..؟

أحمد ــ نعم يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصى ورسول الله يقول: لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق الســارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن ..

أبو بكر ــ هناك المرجئة أيضا ..

أحمد ــ مايقولون ؟

أبو بكر ــ لقد قالوا أن الايمان لاتضر معه معصية كما أن الكفر لاتنفع معه طاعة ..

أحمد (فى صيحة) لاحول ولاقوة الا بالله لقد زينوا للناس فعل الشهوات من المعاصى والموبقات ..

ابراهيم ــ وكيف ذاك .. ؟

أحمد (منفعلا) اذا كان الايمان لاتضر معه معصية فليفعل المسلمون المعاصى كما يشاءون وكلهم مؤمنون . نعوذ بالله نعوذ بالله ..

أبو بكر ــ قولهم الايمان لاتضر معه معصية يمت الى قول أبى حنيفة ان الايمان لايزيد ولاينقص ..

أحمد (محتدا) ــ أبو حنيفة ليس من المرجئة وقد قيل عنه ذلك خطأ وفرية فالرجل براء ..

عبد الله ــ وماذا يقصد من عدم نقص الايمان ؟ ..

أحمد ــ أظنه يقصد أن الايمان موضعه القلب فهو اليقين الجازم . وصاحب المعصية يفعلها وهو يعلم أنها معصية فيقينه القلبى صحيح ؟ فأين هذا من المرجئين ؟ ..

أبو بكر ــ انت تدافع عن أبى حنيفة .. وقد نقل عنك غير ذاك ..

أحمد ــ لم أقل شيئا فى اعتقاد أبى حنيفة ولكنى لا أغلو غلوه لدى الافتاء الفقهى فى الرأى والقياس .. وكل فقيه ومايختار ، وأبو حنيفة فى سائل الكلام فوق الشبهات ..

ابراهيم ــ أبو حنيفة متفق معك فى شىء هام .

أحمد ــ يسرنى أن أعلم موضع الاتفاق ..

ابراهيم ــ انه يكره الجدال فى مسائل القدر والقضاء ..

أحمد ــ وماذا قال ؟ ..

ابراهيم ــ انه يقول .. هذه مسألة قد استصعبت على الناس فأنى

يطيقونها ؟ هذه مسألة مقفلة قد ضل مفتاحها واذا واجد فقـد علمهم مافيها ولايفتح الا بخبر يأتى من عند الله ..

أحمد ـ صدق أبو حنيفة .. كل مايتعلق بذات الله وصفاته مستصعب على الناس فأنى يطيقونه ؟ ، أما نهيتكم عن الخوض فى الكلام .. ؟

أبو بكر « مترددا » ـ وما رأيك فى مسألة القدر ؟ .

أحمد ـ لاتطيلوا الخوض ياقوم كفى ماكان ..

أبو بكر ـ سؤال يسير ..

أحمد ـ قل مالديك .. على ضيق .

أبو بكر ـ اذن أمتنع .

أحمد ـ قل على غير ضيق .

أبو بكر ـ القدرية يقولون : الانسان يعمل مايعمل بقـدرته الخاصة لا بقدرة الله سبحانه وتعالى ، والله لايريد المعاصى اذلايأمر بها ، ولا يأمر سبحانه وتعالى بما لايريد ..

أحمد ـ (متأسفا) ياقوم أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى الرضـا بقضاء الله والتسليم لامره والصبر تحت حكمه والاخذ بما أمر الله به واخلاص العمل لله والبعد عما نهى عنه ، والايمان بالقدر خيره وشره وترك المراء والجدل والخصومات فى الدين (١) .

ابراهيم ـ هل للانسان قدرة خاصة ؟ ..

أحمد ـ (محتدا) القدرة لله وحده ؛ ياقوم دعوا اللجاج ..

أبو بكر ـ آخر سؤال : هل يقع فى ملكه مالايريد ؟ ..

أحمد ـ ياقوم لايقع فى ملكه مالايريد تعالى الله ..

عبد الله ـ هل أصلى خلف القدرى الذى يقول بذلك . ؟

---

(١) ابن حنبل للاستاذ ابى زهرة نقلا عن المناقب ص ١٧٦

أحمد ـ لاتصل خلفه دعوا المبتدعين لست متكلما أنا صاحب ســـنة وكتــاب ••

ابراهيم ـ (لصاحبه) لقد أضجرتما الامام ••

أبو بكر ـ كان لابد أن يقول ••

أحمد ـ وقد قلت مافى كتاب الله وسنة الرسول ••

ابراهيم ـ أنت امام أهل السنة وحافظ الكتاب • •

أحمد ـ (منفعلا) ياقوم دعوا الاطراء دعوا الاطراء ثم يتـــجه الى المحراب ••

الكنز الثمين

أي كنز ثمين جمعه أحمد ؟ وكيف استطاع أن يضم فرائده ويجمع غواليه ؟ لقد عهدناه يسأل كل لآل ويطرق كل صـيرف ويغوص كل مغاص .. حتى جمع تراثا لاينفد ورجع بثروة ذات حظ ..

فما هذا الكنز الثمين ؟ انه مسند أحمد بلا جدال .

لقد انصرف الناشىء الصغير الى حفظ القرآن فما صادفته صعوبة تذكر ؛ فكتاب الله مجموع فى صحف معلومة وسوره وآياته لايختلف عليها مختلف وما عليه الا أن يحفظ ويتأمل .. وذلك شيء يسير ..

ثم نازعته نفسه الى الحديث فماذا وجد ؟ ثروة قيمة تـكاد تضـيع فأحاديث فى الكوفة لايعرفها أهل بغداد وأحاديث بمكة لاتصل الى دمشق وأحاديث فى دمشق لاتصل الى اليمن وفى كل قطر اسلامى محدثون ولكنهم اقليميون فكيف يقتنص هذه الاوابد الشوارد ؟ ، ومن له بمن يجمعه بكل هؤلاء ؟.

لابد من الرحلة في طلب الحديث .. وليبدأ بما سمع ببغداد ثم ليوجه همته الى الكوفة فالبصرة فمكة فالمدينة فاليمن وليحرص على مقابلة أهـل الأثر وليدون كل ماسمع وصح لديه ولينفق العمر الطويل فى الفحص والاستيعاب دون سآمة أو ملال حتى يحيط خبرا بما جهل ؟ وحتى يقدم للناس مجموعة معلومة تضم أحاديث الرسول .. ولكن ..

ألم تكن هناك مدونات قبل أحمد ؟ كانت هناك مدونات ولكنها اقليمية فعالم المدينة قد دون أحاديث المدينة ، وعالم مصر قد دون أحاديث مصر ، أما ان تكون هناك مدونة جامعة قبل مسند أحمد فذلك مالا يجزم به ولعل أظهر هذه المدونات السابقة موطأ مالك رضى الله عنه .. وقد كان الغرض

منه لدى امام أهل المدينة خدمة الفقه لا خدمة الحديث ليسهل اســـتنباط الأحكام الفقهيــة والأدلة الشرعيــة فالموطأ مرتب ترتيبـا فقهيـا فهذا باب الطهارة وهذا باب الصلاة مثلا ؟ ولكن مسند أحمد لم يرتب هذاالترتيب بل جاء وفق الرواة فهو يقول مثلا : مسند عمر بن الخطاب ويروى جميع الأحاديث التى نقلت عنه فيذكر حديث فلان وفلان عن عمر ثم ينتقل الى مسند على فيروى جميع ماروى عنه وهكذا يرتب كتابهوفق الرواةفأنت تجد أحاديث الأحكام مبعثرة فمن الجائز أن يتطلب قارىء أحكام الحج مثلا فيظل يقرأ الكتاب من ـ ألفه الى يائه ـ حتى يصل الى مايريد ••ودون ذلك جهد طائل كبير ـ وتسألنى كيف سلك أحمد هذا المسلك ؟وأجيبك أن الرجل قد جعل همه شيئا واحدا هو أن يجمع أحاديث الرسول صلى‌الله عليه وسلم لم يدر بخلده أن يجعل مسنده سجلا واعيا للفقه والأحكام •• فرتب مسنده وفق الرواة ••

والحق أن جمع الحديث لذات الحديث كان مشغلة شاقة أرهقت أحمـد وأضنته وقد رآها فريضة واجبة الأداء ؟ اذ أنه عاش فى عصر كثرت فيه الأحاديث الموضوعة وذهب أرباب النحل من المغرضين الى اختراع أقوال منسوبة للرسول الأعظم تؤيد اعتقادهم وتساند أفكارهم •• وعج تيار من الموضوعات حتى كاد أن يلتهم الصحيحات فارتاع الامام لذلك وفزع وقدم كتابه ليقول للناس : هذاهوماصح فى رأيى عن رسول اللهوكل‌مادونه مختلق موضوع •• ورجل وجهته فى جمعه هذه الوجهة لايطلب منه أن يلتفت الى تبويب فقهى ، وقد هيأت الايام لهـــذا العمـــل المخلص من يفهرسونه ويقربونه ويرقمونه ويعلقون عليه حتى ظهر أخيرا فى أجمل حلة مرقما مصححا والاعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى ••

لقد قدم الرجل كتابه اماما للناس دون فيه جميــع ماصـح لديه من الاحاديث وقد أوضح طريقته فى الجمع اذ قال لابنه عبد الله (١) •

« قصدت فى المسند الحديث المشهور وتركت الناس تحت ستر الله

(١) ابن حنبل للاستاذ أبى زهرة ص ١٦٤

تعالى ولو أردت أن أقصد ماصح عندى لم أرو من هذا المسند الا الشىء بعد الشىء ولكنك تعرف طريقتى فى الحديث ؛ لست أخالف ماضعف اذا لم يكن فى الباب مايدفعه » ..

ونحن أمام ذلك نجد فى المسند أحاديث ضعيفة وقدرواها أحمد وهو يرجح ضعفها لأنه لم يجد مايعارضها من الأحاديث المسلمة القويه او النصوص القرانية ؛ فتركها لاحتمال ان تكون صحيحة ؛ أما اذا وجد من الأحاديث الصحيحة مايعارضها فى حكم أو اتجاه فانه يرفضها رفضا لاهوادة فيه ولن يقول قائل بعد ذلك كيف يترك أحمد للناس كتابا فى السنة يجعله اماما متبعا وهو يضم بين أحاديثه قدرا من النوع الضعيف ؟ لأننا نقول.. ان رواية الحديث الضعيف موجودة فى كل كتاب فلدى البخارى ومسلم وغيرهما بعض الأحاديث الضعيفة ولكنهم لم يجدوامايعارضها من النصوص القوية فآثروا اثباتها لاحتمال صحتها .. واذن فلم يكن أحمد فى جمعه المسند حاطب ليل ولكنه كان ينظر الى الحديث متنا واسنادا ثم يحكم عليه فى ضوء ماعلم من الكتاب والسنة فاذا وجد تعارضا فى ذلك رفضه دون قبول أما اذا امتنع التعارض فلا بأس من ذكره على ضعفه ولن يضر القارىء فى شىء ؛ اذ لايخالف أصلا متبعا أو يعارض حديثا مسلما صحيحا أجمع عليه الرواة ..

وقد ثبت أن الرجل حتى فى مرضه الأخير كان يستدعى أولاده وتلاميذه ويأمرهم بقراءة المسند ثم يقول .. ارفعوا هذا الحديث فقد صح عندى الآن وضعه ..

فأحمد كان فى تنقيح دائم لما رواه وموازنة قوية فيما بين يديه..وقدأنفق عمره المديد فى الترجيح والتعليل وذلك جهد يضاف اليه بالثناء ..

يقول الأستاذ الكبير أحمد أمين (١)جـ ٢ ص ١١٠ وهو يتحدث عن البخارى رضى الله عنه « وقد خطا فى جمع الحديث خطوة جديدة فقد كان كثير من المحدثين الأولين يقتصرون فى حديثهم على مايجمعون من أحاديث

---

(٢) ضحى الاسلام

مصيرهم فمالك بن أنس يجمع أحاديث أهل الحجاز وخاصة أهل المدينة وابن جريج أحاديث الحجازيين وخاصة أهل مكة ؟ نعم وجد من المحدثين من رحل الى غير مصره ولكن البخارى وسع هذه الدائرة وسن سنة لمن بعده من المحدثين في طلب الرحلة وبعبارة أخرى فى طلب الحديث » .

وفى هذا الكلام ظلم غير مقصود لأحمد فأحمد هو الذى خطا فى جمع الحديث هذه الخطوة الجديدة اذ رحل الى اليمن ثم الى الحجاز خمس مرات على بعد الشقة بينهما وبين بغداد ؛ وذلك غير رحلاته الأخرى الكثيرة وهو الذى سن هذه السنة لمن جاء بعده من المحدثين فاذا قام البخارى بأكثر مما قام به أحمد من الرحلات فهو لم يسن طريقة جديدة ولكن توسع فى سبيل سلكه الامام وقد كان أحمد معاصرا للبخارى ولكنه أسن منه وقد استفاضت شهرته قبل المحنة وبعدها اشتهارا طبق الآفاق فلابد أن يكون البخارى العظيم قد ألم بسيرته وسلك سبيله وروى عن مسنده .. بل ان كثيرا ممن ترجموا للبخارى يذكرون أنه كان على رأى أحمد فى خلق القرآن وعالمان محدثان متعاصران يتقاربان هذا التقارب فى كل شىء لابد أن يكون أحدهما قد أثر فى صاحبه ولن يكون صاحب التأثير غير المتقدم فى السن والمكانة والذيوع ..

وبعض الناس يظنون أن رواية الحديث لعهد أحمد والبخارى - كانت ميسورة هينة وما على السامع الا أن يسمع ويسجل .. وهذا ظن غافل اذ أن الأئمة من طبقة أحمد فى رواية الحديث كانوا يلمون بكل شىء ويتعمقون فى كل شىء .. فهم فى حاجة ماسة الى معرفة تواريخ الرواة والوقوف على أدوار حياتهم وقوفا يكشف عن منازعهم ومناجمهم وقد تسلسلت الرواية أكثر من مائتى عام الى زمن الرسول فلابد من تعرف جميع من روى الحديث فى هذا الزمن المديد أصادق أم كاذب ؟ أم مستور الحال ؟ أم صاحب نحلة معينة يذهب الى تعضيدها ؟ أم رجل سياسة يندفع الى سلوك خاص ؟ فاذا فرغ المحدث من هذه الناحية على وعورتها الشاقة وعسفها العسير اتجه الى المتن .. أموافق لما يعلم من أصول الشريعة أم مخالف أم متقدم عن سواه من الأحاديث المتعارضة أم متخلف ؟ ثم يصدر رأيه فى الحديث

عن يقين وترجيح •• واذن فالمحدث من طبقة أحمد ليس راويا فقطولكنه محدث مؤرخ فقيه ••

واذا كان وضع الحديث قد ذاع فى صدر الاسلام حتى حرم بعض الخلفاء الراشدين رواية الحديث وعاقب على ذلك فكيف يكون الأمر مع امتداد الزمن وقلة الوازع وغلبة الأهواء ؟••

لقد كان عمر الفاروق لايقبل حديثا رواه صحابى الا اذا استشهدعلى روايته بشاهدين ، وكان الامام على يستحلف الرواى بمحرجات الايمان ومثقلاتها •• ولن يكون الاستحلاف من على والشهادة من عمر الا لشك خامر الخليفتين وحاولا أن يدفعاه ولم يكن ذلك مع العامة فقط بل معاجلاء الصحابة وسابقيهم فى الاسلام فقد ذكر عمار بن ياسر بعض الأحاديث النبوية للفاروق واستدل بحادث شخصى وقع أمام عمر نفسه فجعل عمر يقول •• اتق الله ياعمار (١) •• وقد ذكره عمار فلم يتذكر ..

وأعجب ماشوهد أن وضعالأحاديث لم يقتصر علىذوىالدخلوالريب من أعداء الأسلام •• وذوى المآرب الشخصية بل شمل جماعة منصافى النية وذوى الغيرة فى الدين•• سئل أبو عصمة نوح بن مريم ـالجامع١٧٣ هـ ـ عن سبب وضعه لأحاديث سور القرآن فقال ••رأيت الناس تحولواعن القرآنواشتغلوا بفقهأبىحنيفة ومغازىابناسحقفوضعتها حسبةللهتعالى(٢) وقد نسب زورا الى رسول الله ـ انه قال : (ماقيل من قول حسن فأناقلته) واذا نسب الى الرسول ذلك فلكل انسان أن يتحدث عن الرسول وينسب اليه ويروى عنه حتى طم السيل وعج العباب وأصبح الحديث الصحيح بالنسبة الى الحديث الموضوع كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود كما يقول الدارقطنى رضى الله عنه وقد يكون حديث رسول الله جملة واحدة ولكن الوضاع يتزيدون ويضيفون حتى يصبح الحديث عدة سطور ، حتى ليروى عن شهاب الدين الزهرى رضى الله عنه أنه قال •• يخرجالحديثمنالمدينة شبرا فيعود ذراعا ••

---

(١) أبو حنيفة : للاستاذ الجندى ص ٢١٠

(٢) أبو حنيفة : للاستاذ الجندى ص ١٨٤

فاذا كان عمر على قرابة عهده يشك ويستوثق واذا كان أعداء الاسلام وأرباب النحل يختلفون ويفتعلون واذا كان ذوو الغفلة من أنصار الاسلام يختلقون ترغيبا وترهيبا فأى عبء يقوم به صاحب المسند اذا واجه هـذا الطوفان من المزيد بعد مائتى عام فأكثر من وفاة الرسول فأخذ يوازن ويعلل وينفى ويختار حتى جمع مسنده وجعله اماما للناس على أن الاختيار فى ذاته أمر شاق فى كل شىء حتى فى الأدب على سهولته فأنت اذا قرأت ديوان الحماسة لأبى تمام مثلا تعلم أنه قرأ آلاف القصائد حتى اختـار هـذه المقطوعات وليس جهد الشاعر هو جمع هذه الأبيات المحدودة التى يضمها الكتاب بل ان جهده الصادق فيما ترك وأغفل فهو شىء لا يعرف لكثرته وازدحامه وكذلك ما ترك أحمد من الحديث دون تسجيل هو موضـع الجهد الجاهد لكثرته وازدحامه .. فطالما خلا الرجل الى نفسه يقرأ اسنادا لحديث ويقف أمام رواته واحدا واحدا ويتبع ما قيل عن كل راو ثم ينتقل الى المتن فيفحصه ويدرسه ويوازن به غيره حتى يميل به الى النفى أو الاثبات وما نفاه الامام اضعاف ما أثبت فأى رهق كابد فيما عاناه ..

ونحن حين نتكلم عن الامام لا نغفل سواه ممن سبقوه أو لحقوه .. ولعل أظهرهم فى السابقين مالك وفى اللاحقين البخارى أما مالك فيتفق مع أحمد فى شىء ويخالفه فى شىء يتفق مع أحمد فى أنه قبل الحـديث المرسل وهو الذى سقط من مسنده الصحابى ورواه التابعى عن رسول الله مباشرة ، كما قبل الحديث المنقطع وهو الذى سقط من سنده راو فأكثر . ولعل وجهة نظر الامامين فى ذلك ان المتن فى الغالب لا ينافى ما ورد فى السنة والكتاب من ناحية ، وأن الرواة مظنة الورع والخشية من ناحية وبعيد أن يتزيدوا على صاحب الشريعة لذلك كان الحديث المرسل أو المنقطع مقبولا لديهم دون كثير من جمعة الحديث وأرباب الصحاح .. ولكنهما يفترقان فى الترتيب من ناحية وفى الكم من ناحية أخرى فترتيب الموطأ وفق الأبواب الفقهية أما ترتيب المسند فوفق الرواة وأحاديث الموطأ محدودة أما مسند أحمد فقد اشتمل على أكثر من أربعين ألف حديث ، هـذه موازنة بين مالك وأحمد ؛ أما الموازنة بين أحمد والبخارى فيمكننا أن نقول ان البخارى فى

صحيحة قد تشدد أكثر من أحمد فكان يشترط فى الحديث أن يكون اسناده متصلا لامرسلا وان يكون كل راو من رواته مسلما صادقا غير مدلس ولا مختلط متصفا بصفات العدالة ضابطا متحفظا سليم الذهن قليل الوهم سليم الاعتقاد .. ومع ذلك فقد وجد فى صحيحه الضعيف عى قلته كما وجد فى مسند أحمد والفرق بين الضعيف هنا وهناك أن أحمد قد أثبت ما يميل الى تضعيفه لعدم تعارضه مع النصوص أما البخارى فقد أثبت الضعيف وهو لا يعلم ضعفه ولو تأكد أو رجحه ما أثبته فى شيء وهذا وجه الخلاف فى رواية الضعيف بين الامامين ..

أما ترتيب الصحيح فيغاير ترتيب المسند لأن المسند كما قدمنا مرتب بحسب الرواة أما صحيح البخارى فمرتب بحسب الموضوعات كموطأ مالك سواء بسواء .. الا أن هذا التبويب الفقهى قد جره الى عيب ذائع فانه يقطع الحديث فيذكر بعضه فى كتاب الصلاة وبعضه فى كتاب الزكاة وبعضه فى كتاب الصيام مثلا وفى ذلك تشتيت للنص وضياع للمقياس البلاغى والنسق التعبيرى فى صياغته لأن الحديث كامل يتألق بشعاع من البيان يزيد فى فصاحته فاذا ما تقطع خبا بريقه فأصبح عبارة جامدة مع أن قائله أفصح الخلق وسيد البلغاء وقد سلم مسند أحمد من ذلك ولكنه تعرض لشيء آخر اذ جعل من الصعوبة البالغة أن تصل الى الحديث المطلوب دون أن تعرف رواية فلكل مآخذه ولكل محاسنه الكثيرات .

هذا وقد لحظ بعض كتاب الغرب أن فى مسند أحمد ما يدل على شجاعته الأدبية فقد ذكر أحاديث تشتمل على فضائل على وآل بيته مما لا نجد نظيرها فى صحيح البخارى وذلك فى عصر يضطهد العلويين ويناوئهم ويقف بالمرصاد لمن ينسب اليهم بعض الخير فى قليل أو كثير .. ومع اعترافنا بشجاعة ابن حنبل الأدبية فى كثير من مواقفه الخالدة فأننا أمام هذا الرأى بالذات لانرى فى المسألة جبنا يلحق البخارى فربما لم يصح فى اعتقاده ما نسب من الأحاديث الى الرسول عن بنى على فأغفله لذلك وكلا الامامين صادق النية بعيد النظرة شديد الاخلاص رحمهما الله ..

جاء فى مقدمة المسند عن شمس الدين الجزرى مانصه .

أن الامام أحمد شرع فى جمع المسند فكتبه فى أوراق منفردة وفرقه فى أجزاء منفردة على نحو ماتكون المسودة ثم جاء حلول المنية قبل حصول الأمنية فبادر باسماعه لأولاده وأهل بيته ومات قبل تهذيبه فبقى على حاله ثم ان ابنه عبد الله ألحق به مايشاكله وضم اليه من مسموعاته مايشابهه ..

وهذا القول يؤخذ منه أمور ..

أولا ـ أن الامام رضى الله عنه قد قضى حياته الطويلة فى شغل شاغل بهذا المسند الشريف فكان يكتب ويدون ثم يحذف ويثبت ومات قبل أن يجمعه بنفسه .

ثانيا ـ أن عبد الله ولده ـ وهو من خيرة رجال الحديث والفقه قد تولى جمعه وتبويبه وألحق به بعض الزيادات مما لم يدونه الوالد الامام ..

وهنا نسأل كيف جاز ذلك للولد وهو يعلم أن الكتاب منسوب الى أبيه وروايته له وحده ..

فكيف ينسب اليه حديثا لم يأمر بتدوينه وهو صاحب الكتاب ؟ كل ماقيل فى الرد على ذلك ان المعقول المحتمل أن يكون عبد الله قد أضاف من الاحاديث ما سمعه عن أبيه ولم يسجل فى المسند فرأى أن تدوينه حينئذ جائز مستساغ لا ينسب فيه شىء لغير راوية وذلك احتمال مقبول

ثالثا ـ أن أحمد قد أسمع المسند لأهل بيته وأولاده واذن فلأحمد مجلس خاص بالحديث فى منزله فمع أنه كان يحدث بالمسجد ويروى لكل سائل وله من غير أهله تلاميذ كثيرون يفدون اليه من شتى البقاع ومع ذلك فقد كان لا يخلد الى الراحة فى داره بل يعقد فيها مجلساخاصا للحديث ولولا هيامه النفسى بالأثر الشريف ما أقبل على دراسته هذا الاقبال مصبحا وممسيا وداخلا وخارجا ومريضا وغير مريض

هذا ولأحمد تآليف سوى المسند وقد بلغنا من أسماء كتبة كتاب العلل ... كتاب الفرائض ... كتاب التعبير ... كتاب الناسخ والمنسوخ

كتاب الزهد وكتاب الايمـان وكتاب الأشربة • كتاب الفضـائل ، كتاب طاعة الرسول ، كتاب الرد على الجهمية ، كتاب المناسك • ولن نقول عنها شيئًا اذ انها باستثناء كتب المسائل لم تطبع كما طبع المسند بل ضاعت في خضم الزمن وأحسبها جملة أحاديث تتعلق بموضوع بحثه وربما اشتملت على استنباط أو شرح أو تعليل ولم يدونها الامام بنفسه فقد كان يكره التدوين وانما تتبعها تلاميذه في دروسه وعكفوا عليها تبويبا وترتيبا حتى استوقت خلقا كاملا وانتفع بها الناس أحسن انتفاع وحسبنا ما بين يدينا من المسند فلو كان وحده مصنف أحمد لكان بسبقه وشموله ووفرة محصوله دالا على مجهود صاحبه ومنحاه فهو ثروة لا تنفد وكنز ذو نفع جزيل

حقل يزرع

هل أتاك ان كثيرا من الائمة الاعلام فى الفقه الاسلامى قد أنشئوا مذاهبهم القوية والفوا كتبهم الكثيرة وجمعوا فتاويهم المتعددة ووضعوا الأصول العامة للتشريع والضوابط الهامة للاستنباط ولم يكادوا يفارقون الحياة حتى اندثرت مذاهبهم وضاعت مؤلفاتهم وتفرق انصارهم حتى لا يعلم عنهم شيىء ...

وهل أتاك أن أحمد بن حنبل لم يشأ أن يدون كتابا فى أصول التشريع أو أحكام الفقة بل كان ينهى عن كتابة فتاوية ويقتصر على تدوين الحديث وروايته . وعلى الرغم من ذلك فقد سارع تلاميذه الى تدوين آرائه وحفظ أقواله وشرح مراميه وطرقه كل مانطق به أو ناقشه من أحكام حتلى أصبح امام المذهب الذائع وصاحب الرأى المعلوم . .

تلك والله عجيبة غريبة .. ولعل اخلاصه الزائد فى خدمة الفقه والحديث قد أحله هذا المحل فمضى بآرائه المذيوع وبمذهبه للرواج والانتشار وجلب اليه الانصار فى كل صقع وزمان حتى تنقلت آراؤه تطوى الأحقاب مدوية مشتهرة لاينال منها تتابع الزمن ولا تصيبها زعازع النقد مهما اشتد .. بل تنهض شامخة عالية تزهى بصاحبها العظيم ..

لقد نهى الامام نهيا أكيدا عن تدوين فتاويه فى حياته اذ أنه رأى الفقهاء يختلفون فى القول الواحد فلو دونت جميع آرائهم لقذفوا بالعامة فى متاهة محيرة ولم يكن نهيه منصبا عليه وحده بل نهى عن تدوين آراء الشافعى ومالك ، والأولأستاذه والثانىأستاذه وقد روى عنه أنه قال .. لا تنظروا فيما وضع اسحق ولا سفيان ولا الشافعى ولا مالك وعليكم بالأصل والأصل فى مذهبه هو الحديث الشريف ففيه الغناء عن كل رأى ولو عارضه رأى آخر مما دون بعض الائمة فلا قيمة له ، وقد جاء رجل

فسأله فأجاب ...فكتب ما سمع فصاح أحمد بن حنبل ... لا تكتب فانى اكره أن يكتب رأيى ولعلى أقول الساعة بمسألة ثم ارجع عنها غدا (١) واذن فهناك تعليل آخر لمنع الكتابة هو أن الغد قد يأتى بما يبطل الفتوى فيكون تسجيلها خطأ كبيرا ومشغلة لبال الامام ولكن الرجل مشهور ذائع وفى كل يوم يفد عليه الناس من خراسان ومصر والشام والعراق والحجاز واليمن وكل قطر اسلامى ومع كل وافد اسئلة كثيرة ولدى الامام تلاميذ كثيرون يسمعون ويسجلون شاء أم رفض ثم هو لا يستطيع أن يمتنع عن الفتوى وقد سأله السائل المحتاج فلابد من الاجابة ولابد من التسجيل ومن هنا تكون فقه أحمد وأثر عنه مذهبه الكبير ...

ولعل الامام كان يتحرج فى شبابه من تدوين آرائه اذ أن بقية شيوخه من أساتذة الفقه وأبطاله اولى بالفتوى والرأى فاخذ اذ ذاك ينهى عن التدوين . فلما خلا الميدان واصبح الفرد العلم امام الانظار تساهل بعض الشىء فى تدوين ما يقول والا فلو لزم الامام تشدده ما استطاع تلاميذه اغضابه وارهاقه ولما رويت هذه الثروة الطائلة عنه ولكنه فيما يظهر قد قبل التدوين اخيرا على كراهية وتحرج وكان هذا القبول المستكره مصدر الخير والاسعاد ...

واذا كان الأمام يلتزم أقوال السلف فى اتجاهه ومذهبه فمن الجائز أن تكون كراهيته لتدوين أحكامه اقتداء ببعضهم فى ذلك فقد كانوا يتحرجون من الفتوى مخافة أن تقع فى غير موقعها فيهول الخطب فكيف بها لو دونت فى صحائف تتناقلها الأجيال ...

سئل سالم بن عبد الله بن عمر عن مسألة فقال ... لم أسمع فى هذا شيئا قال السائل فأخبرنى ـ أصلحك الله ـ برأيك قال لا ثم أعاد عليه فقال أرضى رأيك فقال سالم لعلى ان أخبرتك برأيى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا غيره فلا أجدك (٢) وهذا شبيه بقول أحمد المتقدم ولعلى أقول

---

(١) طبقات الحنابلة ص ١٧
(٢) أبو حنيفة للاستاذ الجندى ص ٢٤٤

الساعة بمسألة ثم أرجع عنها غداً.. فالخوف من الخطأ سبب الامتناع لدى الرجلين دون خلاف ...

على أن ثروة أحمد الفقهية لاتكاد تنفصل عن الحديث فى شىء فالرجل واسع المحفوظ من آثار رسول الله لا يكاد يسأله السائل عن حكم شرعى حتى يجد الرد فى حديث مباشر يلقيه الامام من غيب صدر أو يطالعه فى اوراقه تحرزا وهو يحفظه ويعيه ...

قال عبد الوهاب الوراق (١) ما رأيت مثل أحمد بن حنبل فقالوا له وأى شىء بان لك من فضله فقال .. رجل سئل ستين ألف مسألة فأجاب فيها جميعا حدثنا وأخبرنا ومهما كان الرقم مبالغا فيه فهو يدل على أن الأسئلة الفقهية كانت لاتنقطع عن مجلسه من ناحية وأن اجابته فى أكثرها كانت نصوصا نبوية تقع موقعها الصحيح من ناحية ثانية ... ولتضلع أحمد فى الحديث واكثاره منه مع كراهته لتدوين آرائه لم يشأ بعض الناس أن يعدوه من أئمة الفقه وجعلوه اماما فى الحديث وحده ... قال القاضى عياض (٢) انه دون الامامة فى الفقه وجودة النظر فى مأخذه وقال الأستاذ أحمد أمين بك (٣) ولا خلاف فى عده من كبار المحدثين ولكن الخلاف فى عده من الفقهاء فابن جرير الطبرى لم يعد مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء وكان يقول انما هو رجل حديث لا رجل فقه ولم يذكره ابن قتيبة فى كتابه المعارف بين الفقهاء وذكره المقدسى فى المحدثين لا فى الفقهاء واقتصر ابن عبد البر فى كتابه على الأئمة الثلاثة أبى حنيفة ومالك والشافعى وخالفهم فى ذلك غيرهم وخاصة المتأخرين ...

ووجهة هؤلاء أن أحمد أولا لم يترك كتابا فى الفقة بل ان جميع آرائه مدونة عن تلاميذه وأنه ثانيا ينزع منزع الحديث فى فتواه وأن اراءه المنسوبة اليه قد تختلف الى درجة التناقض وان ما روى عنه كثير جدا مع تورعه عن نقل فقهه وذيوعه ...

---

(١) ابن حنبل للاستاذ ابى زهرة ١٩٩
(٢) تاريخ الفقه للحجوى حـ ٢ ص ٢٢
(٣) ضحى الاسلام حـ ٢ ص ٢٣٥

ونحن لو نظرنا الى هذه الشبهات نجدها أهون من أن تنزع الامام عن صدارته الفقهية ... فأحمد .. وان لم يترك كتبا فى الفقه فقد تكفل تلاميذه بنقل جميع آرائه كما تكفل تلاميذ أبى حنيفة بنقل آرائه سواء بسواء ولئن قيل ان أبا حنيفة لم يظهر فى ازدهار عهود التدوين كما ظهر أحمد فذلك لايغير من الموضوع فى شىء لان النعمان قد نشر مذهبه على أيدى تلاميذه وأحمد كذلك فكيف نفرق بين الرجلين وقد عثر للامام على كتاب خاص بالفقه وهو كتاب المسائل ولم يدونه الامام أحمد بنفسه فقد كان لا يلتزم ذلك ولكن بعض تلاميذه فيما يظهر تتبع الاسئلة ورصد الاجابة حتى استوى له كتاب المسائل عن هذا التتبع اليقظ الحريص وقد وصفه المستشرق الدكتور يوسف شخت (١) فقال .. ولكن كتاب المسائل الموجود منه ثلاث روايات لم يطبع منها الا واحدة طبعة خاصة يصعب الحصول عليها أقول أن كتاب المسائل هذا الذى يشتمل على أجوبة الامام أحمد على المسائل التى وجهت اليه فى كافة أبواب الفقه كمايشتمل كتاب « المدونة الكبرى » على أجوبة مالك بن أنس يسمح لنا بأن نؤكد أن الامام احمد نفسه أراد ان يكون فقيها لأنه كان يعلم مذهبا فقهيا مفصلا لا يقتصر على شرح الأحاديث ولهذا ينبغى الا نعتبر مجموع احاديثه الكبير المشهور بالمسند كأنه مؤلف قائم بذاته فحسب بل نعتبره أيضا كتابا يضع فيه الامام أحمد الاساس لمذهبه الفقهى ...

فالرجل فى فتاويه فقيه أصيل استنباطا وتعليلا وتدليلا ... ولا يمكن أن يكون عدم التدوين ـ ان صح مجيزا لعده من المحدثين دون الفقهاء ...

ثانيا ـ اذا ثبت أنه ينزع منزع الحديث فى فتواه فمعنى ذلك أن فقهه يرتكز على الحديث لا أنه غير فقيه فهو يجعل الحديث أصلا ثابتا لا محيد عنه كما يجعل سواه الرأى او الاجماع أصلا بين أصول فتاويه وفرق بينه

---

(١) مجلة الرسالة مارس ١٩٣٦ من مجموعة مقالات فى الفقه الاسلامى .

وبين محدث يروى فقط ، فهو يروى ويقيس ويستنبط وهذا عمل الفقيه لا المحدث

ثالثا ـ اذا كانت الآراء لديه تختلف الى درجة التناقض فلم يسلم من ذلك امام من الأئمة فلأبى حنيفة آراء متضاربة يأخذ بعضها أحدتلاميذه وبعضها الآخر فريق ثان ولم يمنعه ذلك أن يكون الامام الاعظم ؟ وقد رجع الشافعى بمصر عن مذهبه فى العراق فأتى بآراء تقف من آرائه الأولى موقف النقيض من النقيض ولم يكن مع ذلك الااماما يتبع... فكيف يكون اختلاف الآراء عن أحمد سبيلا الى خروجه من زمرة الفقهاء مع أنه لم يدون فقهه ومن الجائز أن يكون بعض هذا التناقض من الرواة ولنا ازاء ذلك أن نقيس وأن نرجح في ضوء ما نعهده عن مشرب أحمد ومنحاه...

رابعا ـ اذا كان ما روى عنه كثيرا جدا مع تورعه عن نقل آرائه فليس الذنب ذنبه فى ذلك ولكنه علم راسخ فى فنه وموضع الثقة من الجماهير وكل الناس يأتونه من شتى البقاع يسألون فيستفيدون ويرجعون فيروون فكيف تكون هذه الاجابات الكثيرة مدعاة لابعاد الامام عن زمرة الفقهاء وهى اذا تأملت الامر سبب أكيد فى زعامته الفقهية وامامته التشريعية ... ولن ننظر اليها بغير هذا الاعتبار ...

الحق أن أحمد كان فقيها من فرعه الى قدمه واذا اختلط فقهه بالحديث فهو اختلاط الشيء بأصله والتقاء الحكم بدليله النقلى ... لذلك كان فقهه أثريا يعتمد على الأثر ، ويسير فى فلكه ولكنه فقه متميز ذو هدف واتجاه ...

لقد اتجه الامام الى البذور الجيدة الصحيحة من السنة المطهرة فغرسها فى حقل خصيب وتعهدها بالرى والمحافظة حتى أثمرت ثمرا ناضجا هو ذلك الفقه الأثرى الذى يروى عنه فى أحكامه وفتاويه.. ويا له حقلا ناضرا مزدهر الأفياء يؤمه الناس في كل زمن فيعودون منه وقد شبعوا من ثماره ونعموا بقطافه الدانيات ....

وكما ظلم أحمد فحاول المحاولون أن يخرجوه من الفقهاء فقد ظلم

فقهه ظلما آخر اذ انطلقت بعض الشائعات تصفه بالجمود والتشدد والتزمت وهو من كل ذلك براء بل انه فى ميزان البصر الصائب أبعد المذاهب عن الجمود كما سيتضح بعد حين وهؤلاء الذين يصفون فقه الرجل بالتشدد يخلطون بين سيرة أحمد وفقهه ؟ فالرجل فى حياته كان يأخذ نفسه مأخذ الصرامة والتحفظ والترفع ..

فهو زاهد عيوف يحتقر رغبات الحياة واضواءها البواهر كما أنه تقى ورع متشدد يتمسك فى عباداته بأدق ما يحفظ فى السنة والكتاب وأشق ما يروى عن الصحابة والتابعين وهذا فى سيرته وحياته ، ولكنه فى فقهه لايلزم أحدا بما الزم به نفسه بل افتى بما اتسع له الكتاب والاثر من تسامح وسعة... فكيف يخلط بين فقه الرجل وسيرته فنحكم على المذهب بما عرف عن صاحبه فى حياته الخاصة من امعان فى النسك والزهادة والحرمان ... ولو كان هذا الحكم الجائر من غير المثقفين لهان الامر وسهل ولكن الذى يظلم فقه الامام هذا الظلم فريق من أئمة الكتاب وقادة المفكرين وهم بهذا الخطأ يحكمون على أنفسهم أنهم خاضوا فيما لايعلمون واستمعوا الى الشائعات العامة دون نظر او تمحيص ... والا فكيف يقول مفكر مجدد باحث كابن خلدون فى مقدمته .. فأما مذهب أحمد فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته فى معاضده الرواية والاخبار بعضها ببعض ....

ويقول الاستاذ ولتر باتون (١) فى كتابه ابن حنبل والمحنة «ان شخصية أحمد كمحدث وكراهيته للتعميم والقياس عاقاه عن أن يخلف مذهبا فكريا منسقا وقد نقوم عنه فى أيامنا هذه فنصوغ له آراءه وافكاره وان ننهض بتشكيلها ولكنه لم يكن ميالا الى القيام بهذا الترتيب والتنظيم ومن ثم اوهن احجامه وتقاعده من تأثير المدرسة الحنبلية اذ أن تعاليم امام الحنابلة لم تكن منسقة مبوبة ففقد الحنابلة فراغا كبيرا قبل أن يكشفوا للعالم عن مكنون روحها وخصائص مبادئها وذلك على صورة تحقق لها رجحانا ظاهرا وتأثيرا قويا ...

ويقول الاستاذ محمد سعيد أحمد بك فى سلسلة مقالاته .. الاجتهاد

---

(١) ص ٢٦٣ ترجمة الاستاذ عبد العزيز عبد الحق

فى التشريع الاسلامى (١) وظاهر من مجهود أحمد وطريقه أنه جعل كل اهتمامه فى جمع الحديث ونتج عن ذلك أنه أخذ بأحاديث ضعيفة فاذا قارنا أبا حنيفة الذى جعل القرآن رائده الأول واجتهد فى الرأى مستضيئا بنوره ومستنبطا أحكامه من آياته بابن حنبل الذى لم يجتهد فى الرأى الا قليلا وجدنا أن هناك فتورا فى الاجتهاد الذى هو أصل من أصول الاسلام بين أول الائمة وآخرهم ...

فهؤلاء ثلاثة من أفاضل المفكرين فى الشرق والغرب والقديم والحديث يعلمون عن فقه أحمد مالا يتفق ومنهجه الملموس وغير هؤلاء كثيرون ممن لم يدرسوا أحكام الرجل ولكنهم سمعوا عنه مالا يمت اليه فاعتقدوا ذلك اعتقادا لايتطرق اليه الريب فى شىء .. فابن خلدون يحكم ببعد مذهبه عن الاجتهاد ولو كان الامر كذلك ما ظهر فيه أئمة مجتهدون كابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب ولاندثر كما اندثرت عشرات المذاهب .. والاستاذ باتون قد درس حياة الرجل والف فيها كتابا طويلا ممتعا ولكنه لم يدرس فقهه فحكم غير صادق بأنه لم يخلف مذهبا فكريا منسقا ...

مع أن مذهبه ذو أصول معروفة مدونة وله قواعد فى الاستنباط لاتزال تحتفظ بمرونتها السهلة وشمولها العميم . والاستاذ سعيد أحمد يدرس التشريع الاسلامى لا من مصادره وطرق أحكامه بل من بعض ما كتب عنه فيقرر أن فى مذهب أحمد فتورا فى الاجتهاد الذى هو أصل من أصول الاسلام ولابد ان نأخذ العبرة من ذلك فلا نجيز لمفكر ما أن يحكم على أمر لم يتعمقه بنفسه فابن خلدون مفكر فيلسوف فى الاجتماع والتاريخ ... ولكنهلم يدرس فقهأحمد فحكمه مرفوض مردود وكذلك كل من يتلقف الآراء الشائعة فى الشرق والغرب فيتناقلها دون تمحيص انما الحكم على فقه الرجل لا يكون الا من فقيه أصيل متضلع أنفق عهدا طويلا فى دراسة الأصول والقواعد الفقهية دراسة عميقة يمدها النظر الصائب والحياد الدقيق .. هنا يكون الرأى صائبا أو قريبا من الصواب

---

(١) مجلة الرسالة (١٢ يونية ١٩٥٠)

ولا نكاد فى عصرنا الحاضر نجد من قام بهذه الدراسة المنصفة عن بصر ثاقب ، واطلاع واسع وصبر بالغ غير الأستاذ الكبير محمد أبى زهرة فمع مؤلفاته الفقهية الكثيرة فى الاحكام التشريعية قد وضع عدة اجزاء كبيرة ضخمة عن أئمةالفقه الاسلامى وخص كل امام بمجلد كبير خاص فتحدث عن أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وابن تيمية وابن حزم ، حديث المستوعب الجلد الذى يتعمق الاصول ويملك أسباب الترجيح عن نصفة دقيقة وحياد أمين .. ومثل هذا الدارس الذكى الدءوب جدير أن يصل الى اللباب دون • تحيز ومغالاة ... وفيم التحيز .. ؟ وقد درس كل امام على حدة فاوضح اصول مذهبه وطريقة تفكيره مؤيدا رأيه بالدليل؟ فهل سارالاستاذ أبو زهرة مع هؤلاءالذين يرمون أحمد بالخوفمن الاجتهاد ويصفون مذهبه بالتزمت الكريه ؟ أو انه انصف الرجل عن يقين فرد الى مذهبه الفقهى اعتباره المكين ..

لقد درس الاستاذ الكبير أبوزهرة أصولَ مذهب أحمد فوجدها كما دونها العلامة ابن القيم فى أعلام الموقعين .. لا تخرج عن خمسة أصول

أولا : النصوص ـ فاذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت الى ما خالفه وأظن أحدا لايعارض فى أفضلية النص فهو فى بابه أقوى من غيره واليه لجأ جميع الأئمة دون تمييز

ثانيا ـ ما أفتى به الصحابة ولا يعلم مخالف فيه فاذا وجد لبعضهم فتوى ولم يعلم مخالفا لها لم يتجاوزها الى غيرها وتلك وجهة نظر معقولة فالصحابة الاخيار قد عاشروا الرسول ولابسوه فكانوا أدرى بوجهته ولو وقع بعضهم فى الخطأ لصححه الرسولَ وعلم ذلك فلا يروى أو عارضه غيره من الصحابة بعد وفاة الرسول فيكون اختلافهما سبيلا لايضاح الحق وتمحيص الصواب ..

ثالثا ـ اذا اختلف الصحابة فى رأى تخير من أقوالهم ما كان أقربها الى الكتاب والسنة (وفى ذلك اجتهاد صريح) ولم يخرج عن أقوالهم فاذا لم يتبين له بعد الاجتهاد والبحث ـ موافقة أحد الاقوالحكى خلافهما ولم يجزم بترجيح

رابعا ـ الاخذ بالحديث المرسل والحديث الضعيف اذا لم يكن فى الباب شيء يدفعه وهذه العبارة تفيد أن الحديث المرسل والحديث الضعيف كليهما لا يغنيان شيئا أمام نص صريح أو قياس معتدل فاذا كان الحديث الضعيف لا يوافق روح التشريع رفض اما اذا وافق فهو مقبول ••• وقد يختلط لدى بعض الناس معنى الضعيف بالموضوع • والفرق بينهما فى الحكم بعيد فالموضوع مجزوم بكذبه فهو مرفوض والضعيف غير مجزوم به فينظر اليه فى ضوء ما علم •••

ولنا أن نقول ••• اذا كان الاخذ بالضعيف مقيدا بموافقته لنص معروف فانه لم يأت بجديد •• ويكون الاخذ به اذ ذاك عملا بالنص السابق أو الروح العامة للتشريع فالاخذ به اذن للاستئناس لا للاستشهاد كما هو واضح تمام الوضوح •••

خامسا ـ القياس •• وهو مناط الأخذ والرد لدىمن يثبتون جمود المذهب الحنبلى وتقييده كابن خلدون وقد رفضه أصحاب المذهب الظاهرى فتحجر مذهبهم تحجرا ماتت فيه الحياة كما تشبث به أناس جعلوه يقف أمام النص فغلوا غلوا كبيرا •• وكادوا يخرجون به عن جوهر التشريعةولا نعنى بهؤلاء الحنفية فهم قوم أذكياء معتدلون ولكننا نقصد ذوى التعصب لعقولهم وأفهامهم دون تواضع حبيب لما بين ايديهم من النقول •••

فما موقفأحمد من القياس•• ان الرجل أثرى يتمسك بالنصوص وقد جاء فيها كتابا وسنة ما يحض على القياس فليس له أن يرفضه ويأباه

قال الله تعالى (ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستبطونه منهم) وأول الاستنباط وأعلاها القياس ••

وقال تعالى (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ••••) فهذا تعليل واضح لتحريم الخمر والميسر ••• والقياس يستند أول ما يستند الى التعليل •••

وجاء فى السنة أنه قصد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل

ينكر ولدا له رآه جاء أسود فقال عليه الصلاة والسلام هل لك ابل قال نعم ؟ قال ما ألوانها .. قال حمر .. قال هل فيها من أورق قال نعم قال فمن أين ؟ قال الرجل لعله نزعة عرق .. قال .. وهذا لعله نزعة عرق فهل يكون القياس غير ذلك ؟ وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ... ان أبى أدركه الاسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع الرحيل والحج مكتوب عليه أفأحج عنه ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنت أكبر ولد له قال .. نعم .. أرأيت لو كان على ابيك دين فقضيته عنه أكان يجزى ؟ قال نعم ... فحج عنه ... فهذا قياس للحج على الدين ...

وقد ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن فقال له بم تحكم فيهم ؟ فقال بكتاب الله قال فان لم تجد ؟ قال بسنة رسوله قال .. فان لم تجد ؟ قال اجتهد برأيى فقال النبى صلى الله عليه وسلم .. أصبت يامعاذ . أفليس هذا تصريحا بالاجتهاد ؟ ..

أجل لقد روى أحمد ما تقدم من الآيات والاحاديث فلا مفر لديه من الاجتهاد بالمقايسة والتعليل لأن الرجل صاحب منهج متبع فهو أثرى وقد أرشده الاثر الى القياس فلابد أن يقيس ...

واذا كان الرجل يتمسك بالاثر حتى فيما لا وجه للتمسك به .. اذ أنه حين خرج من سجن المعتصم وآثر الاختفاء اختفى ثلاثة أيام فقط فى منزل بعض أصدقائه وصمم فى اليوم الرابع على الخروج فخوفه صاحب المنزل واسمه ابراهيم (١) بن هانىء من القبض عليه فأصر على الخروج واستدل بأن رسول الله قد اختفى فى الغار ثلاثة أيام فقط ثم ظهر .. فلابد أن يقتصر اختفاؤه أيضا على ثلاثة أيام ؟ ..

اذا كان أحمد يتمسك بالاثر فى ذلك ؟ أفلا يتمسك بالقياس وقد دعا اليه الاثر وزكاه ولكن .. ما موقف ابن حنبل بين المغالين فى

---

(١) الامام الممتحن ص ٧

رفض القياس من الظاهرية والمغالين فى الاستمساك به من خصومهم ذلك سؤال نترك للاستاذ الكبير « محمد أبو زهرة » الاجابة عليه فيقول ما نصه ..

لقد كان لأحمد المحدث والفقيه موقف حسن فكان بين ذلك قواما فلم ينف القياس نفيا باتا كما فعل الظاهرية الذين حكموا بالنصوص دون سواها وسهل لهم طريقهم انهم لم يبتلوا باستفتاء الناس فلم يقصدوهم كما قصدوا أبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد ولم يغال فى القياس مغالاة العراقيين الذين خلفوا أبا حنيفة وتلاميذه فوقفوا العلل المضطردة فى زعمهم فى مقام المعارضة للنصوص وفتاوى الصحابة ؟ لقد أخذ أحمد بالقياس وكرره كما جاء فى الروضة لابن قدامة الحنبلى اذ فيها أن أحمد رضى الله عنه قال ... لا يستغنى أحد عن القياس وهى كلمة حق بالنسبة للمفتى الذى يتصدى للافتاء فانه مضطر اليه لا محالة لأن الناس يجد لهم من الحوادث ما يقتضى قياس غير منصوص على منصوص ولا يستطيع الفقيه أن يجد لكل حادثة نصا من الكتاب والسنة أو فتاوى الصحابة . وما دام لايجد شيئا من ذلك فاما ألا يفتى فيكون الناس فى حرج شديد ولا يصلحون أحكام الدين فى أعمالهم واما أن يقيس رفعا للحرج واجابة لداعى الارشاد والهداية ولا يغنى التوقف فى هذا فتيلا [1] .

هذا موقف أحمد من القياس كما يعرفه الفقهاء المتضلعون لاكما يزعمه ابن خلدون وأضرابه ممن يحكمون فى كل شىء ويلجون كل باب! وهم كبشر ـ محدودو الطاقة فليتهم يقتصرون على ما يحسنون !

لقد كان من عادة الامام اذا سئل أن يستشهد بالحديث فيقول حدثنا وأخبرنا وقد فهم بعض الناس ان هذا الاستشهاد لايخرج فى جميعه عن النص وذلك غير صحيح فقد يكون الاستشهاد نصاً فى الموضوع وقد يكون قياسا لموضوع على موضوع ! فأحمد حين يقول حدثنا ، كان فى بعض أحواله يقيس شيئا بشىء ثم يأتى بالحديث المقاس عليه فيحسبه بعض

---

(١) ابن حنبل لابى زهرة ص ٢٧٢

المتسرعين نصا وليس له! والرجل يعيش في أوج الحضارة ببغداد وقد تنوعت المدنيــة وازدهرت أبواب التقدم والنهوض فلو وقف عند النص اذ ذاك ما سعى اليه طالب معرفة ! ولكن الوافدين كانوا يتزاحمون عليه بالمنـــاكب ويتحملون عناء السفر شهورا ذات أيام وليال لينهلوا من مورده ويقبسوا من ضوئه ... ولو جانب القياس ما اتسع له أن يفتي في كل أمر ويحكم في كل مسألة ؛ أما وقد حمل لواء الفتوى في هذا الزمن المتسع الفياض وصدر عنه الناس مرتاحين مسرورين ! فلا يتصور أحد معاداته للقياس ، ذلك بعيــد بعيد ؟ ولمـاذا نسهب في توضيح ذلك وأمامنا ثروة هائلة من فتـاويه دونهـا تلاميذه وأنصاره من مذهبه ـ فليقرأها الفقيه المتبصر ثم يمضي بحكمه حيث يريد !

وقد التفت الاستاذ أبو زهرة في مبحثه الجليل عن الفقه الحنبلي الى ناحيتين هامتين لاتجعل هذا الفقه الميسر في وصف المذاهب الثلاثة الاخرى بل يتقدمها لدى النظر الصحيح أما الناحية الأولى فان أصحاب الفروض والتفريع يتقيدون بضوابطهم المنطقيــة ومقايساتهم الاصولية فيما يأتي من الحوادث أما أحمد وأصحابه ممن لا يجعلون القياس كل شيء في التشريع ولا يفترضون في ضوئه ما سيجد وما سيحدث مما لم يكن بعد فقد تركوا الباب مفتوحا للاستنباط والتعليل وأصبح مذهبهم ذا مرونة واضحة تسمح له بالاحاطة والشمول ...

يقول الاستاذ [1] وقد لاحظنا من الاستقراء الفقهي أن الفقه الذي يكثر فيه التفريع ويضبط بضوابط قياسيــة كالفقه الحنفي بشكل خاص والفقــه الشافعي الذي يقاربه وان لم يماثله يكون الضبط القياسي مقيدا له فاذا جاء الفقيه وابتلى بحوادث وجد النصوص المذهبية القياسية قائمــة وقد تكون غيــر مناسبة للزمان فتقف محــاجزة بين الفقيه والافتاء بالصالح ولذلك اضطر المجتهدون في المذهب الحنفي لسبب ضــبط الأقيسة والتفريعــات القياسية أن يستكثروا من الاستحسان بالعرف .. وقد سلم من هذا الفقهاء

---

(١) ص ٣٥٥ من كتابه ببعض التصرف اليسير

الذين تقيدوا بالوقائع لا يفتون فى غيرها ولا يقدرون الأمر قبـــل وقوعه فطريقة التخريج عندهم غير مقيدة بقول سابق من الامام وأصحابه ؟ ... وواضح أن فقــه أحمد لا يفترض الفروض العقليــة ولا يجعل الاقيسة ضوابط ملزمة فهو الفقه المرن الخصيب ...

هذه الاولى ... اما الثانية فقد فتحت على الفقه الحنبلى أبوابا متســعة المنافذ متشعبة الطرق اذ أنه فى باب المعاملات وهو أضخم أبواب الفقـــه وألصقهــا حاجة بالنـــاس قد جعــل الأصل فى الأشياء والاباحة فاذا ورد تحريم شيء معين فهــو محرم وما عــداه فغير محظــور ... أما العبــادات فقد قيدتها النصوص الواردة ولم تترك مجــالا للتحليل ، والتحريم ولقد قال ابن القيم فى تقرير هذه الحقيقة [1] ...

والاصل فى العبادات البطلان ؟ حتى يقوم دليل على الامر ؟ والاصل فى العقود مراعاة الصحة حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم والفرق بينهمــا أن الله سبحــانه وتعالى لا يعبد الا بما شرعه على ألسنة رسله فان العبادة حقه على عباده وحقـــه الذى أحقـــه هو ورضى به وشرعه وأما العقود والمعاملات فهى عفو حتى يحرمها ولهذا نعى الله سبحانه وتعالى على المشركين مخالفة هذين الاصلين وهما تحريم مالم يحرمه والتقرب بما لم يشرعه وهو سبحانه لو سكت عن اباحة ذلك وتحريمه لكان ذلك عفوا لايجوز الحكم بتحريمه وابطاله فان الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه وماسكت عنه فهو عفو .

ويقول الأستاذ أبو زهرة تعليقا على ذلك [2] وقد كان ذلك الأصل الموسع وهو جعل معاملات الناس على أصل العفو والاباحة حتى يقوم الدليل من الشارع على التحريم سببا فى ان كان هذا المذهب أوســع المذاهب فى اطلاق حرية التعاقد وفى الشروط التى يلتزم بها المتعاقدان فأقر من الشروط مالم يقره غيره من الفقهاء وسار فى ذلك على منهاج أساسه احترام كل ما يشترطه

---

(١) أعلام الموقعين جـ ١ ص ٣٠٠ وقد نقلناه عن كتـــاب أبى زهرة ص ٢٠٢

(٢) ابن حنبل للاستاذ أبى زهرة ص ٢٠٢ .

المتعاقدان • والالزام به حتى يقوم دليل من الشـــــارع على تحريم ذلك الاشتراط أو بطلان الحقيقة الشرعية التى تكون منه •

ونحن بعد ذلك نطمع فيمن يرمون المذهب الحنبلى بالضيق والجمود أن يدرسوه ويتفحصوه ثم يوازنوا بينه وبين غيره فى منحاه العملى سعة وضيقا وتحريما واباحة وحينئذ يبدو الصباح لذى عينين ويعلم الناس أى حقـل خصيب غرسه الامام فتهدلت أغصانه وآتت أكلهـا ضعفين وما زالت تؤتى الجنى وتمتع العين وتمد الظلال ••

ثمر ناضج

لقد حمل أحمد شعلة الحق المقدسة وظلت تتناقل على يده من جيل الى جيل فكان عجبا أن يكون البارزون من دعاة التجديد فى الاسلام من تلاميذ أحمد وأتباع فقهه ودارسى مذهبه ! وتلك حقيقة لاتقبل الجدل فقد تتابعت السنون وكلما اختلطت مسائل الدين وتشابكت طرق الحق وتكاثفت غيوم الريب ، قام فقيه حنبلى يرشد الناس فيبدد الشبهات ويدعوالى طريق مستقيم !

تلك شعلة أحمد بلا جدال فقد حمل راية الكتاب والسنة فى عصره وجعلها وحدها طريق النجاة ورائد الخير ... وتمر الليالى مثقلة بأباطيلها وشكوكها فاذا الحق يلتبس بالباطل واذا الظلام يطغى على النور واذا الناس من حيرتهم المضنية فى أمر مريج ! وهنا يقوم تلميذ مخلص من تلاميذ أحمد يترسم طريقه ويسلك نهجه ثم يحمل راية الكتاب والسنة فاذا الحق واضح لالبس فيه واذا النور مضىء لاظلام معه واذا الناس سائرون خلف أمام مطاع على صراط مستقيم !

هلم معى نعدد مجددى الفقه وموقظى السنة فى غفوات الزمن فنذكر ابن تيمية وابن القيم فى عصر المماليك ثم نذكر ابن عبد الوهاب والشوكانى فيما تلاه من العصور ... ثم نرجع بتعاليم محمد عبده ورشيد رضا وعبد المجيد سليم فى العصر الأخير الى ابن تيميه وابن القيم! ونتساءل بعد ذلك من هؤلاء أليسوا ورثة أحمد بن حنبل وحاملى شعلته المقدسة فتم على أيديهم الخلاص وفتح بطرقاتهم القوية باب الاجتهاد ! فكانوا أطيب الثمار فى حقل ناضر بهيج !

واذا كان ابن القيم ثمرة ابن تيمية واذا كان الشوكانى ومن جاء بعده ثمرة ابن عبد الوهاب فلنقصر موازنتنا العاجلة على الرجلين العظيمين! تاركين

للقارىء أن يقدر الأثر الطيب لمدرسة أحمد وكيف انتعشت فى حرمها الرفيع مبادىء الاسلام وتعاليمه فنضر فى روضها ما ذبل وأضاء فى أفقها ما أظلم وتلك معجزة أحمد على الاحقاب !

نشأ ابن تيمية فى عهد كعهد أحمد فاذا كان العصر العباسى مليئا بالجدل والمناظرة فى الكلام والعقائد واذا كان الزنادقة والملاحدة والفروق المختلفة يبذرون شكوكهم فى نفوس العامة فيبلبلون الخواطر ويحيرون العقول، ففى عصر ابن تيمية تعددت طوائف المجادلين من شيعة ذات شعب وفرق ومن جهمية ومعطلة ومن أشاعره ومجسمة ومن صوفية وأرباب حلول واتحاد وكل حزب بما لديهم فرحون ! فأخذ كل فريق يؤول القرآن ويستشهد بما يحب وفق مشربه ويخترع الاحاديث لتعضيد وجهتـــه ويرمى بالكفر غيره ممن لا يذهب معه فى الطريق ! فاذا أردت أن تنظر الى روح الاسلام بين ذلك لم تكد تتعرفها فى شىء فكتب الفقه جامدة هامدة تتمسك باللفظ وتدور حوله ، وهى فى أكثرها متشابهة متقاربة فالمؤلف لايبوب ولا يرتب ولا يجتهد فى تعليل حكم أو تبسيط حجة ولكنه اما مطيل فيسهب فى شرح الفاظ غيره ممن نقل عنه واما موجز ؛ فيختصر كلام غيره اختصارا يجعله أقرب الى الاحاجى والمعميات! وقد ولجت الكثرة الغالبة من العامة باب الشطط والجموح فغرقت فى الدروشة الموهومة وشطحت مع الصوفية شطحات محيرة ثم زادت فجعلت قبور الأولياء مساجد ! وأخذت تتوسل بأصحاب القبور وتلجأ اليها فى كل مرغوب يطلب من شفاء المريض ووفاء الدين والافراج عن المساجين وتولية المناصب وزواج العرائس ورواج التجارة واكتناز المال! وتعد ذلك من صميم الدين ولبـــابه ! فكان لابد من قائد يبدد هذه الأوهام ويحارب تلك الأراجيف ! ولم يكن ذلك غير ابن تيمية فقد جابه التيار المتلاطم بقوة وصبر ووقف فى الطريق المزدحم ليرفع شعلة أحمد ويحمل راية السنة والكتاب !

السنة والكتاب! هما وجهة ابن تيمية وقبلته ! وكما سلك أحمد سبيل التنزيه وبعد عن التأويل فقد جاء تلميذه من بعده ليعلن خطتـــه ويقفو آثره فذهب مذهب السلف فى قبول النصوص كمـــا جاءت ؛ لان مايتعلق بالله

وصفاته شيء وراء العقل لايصل اليه الانسان ! الا اذا قاس ربه على نفسه وذلك خطأ كبير • ومن ثم فقد اثبت لله ما ذكره كتابه من الاستـــــواء والصورة والعين واليد ولكن كما وصف بذلك نفسه فى القرآن ؛ دون كيفية أو تمثيل أو تشـــبيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ••• كما ذهب مذهب أحمد فى اثبات الصفات لله لان الله قد أثبتها لنفسه فلا داعى الى نفيهـا كما ترى المعتزلة وحمل على التأويل حملات قوية لأن الله عز وجـل قد صاغ القرآن ليفهم دون عائق فلا يصح صرف الظاهر من الآيات الى معانى أخرى دون دليل .. وقد كانت هذه الآراء السلفية سببا فى محنة الرجل كما كانت اراء احمد سببا فى محنته •• فعقدت له مجـــالس المحاكمة وقام القضاة من خصومه بأسئلته فثابر وناقش وخرج ظافرا منتصرا ؛ الا أن كيد الخصوم لم ينقطع فدأبوا على الوشاية به وأوغروا صدور أولى الأمر عليه؛ فسجن كما سجن أحمد ؛ ثم أفرج عنه وما زال يسجن ويسجن حتى مات فى سجنه وقد انتصر له الـكثيرون فسلكوا طريقه . وأحيوا السنة وأماتوا البدعة • وجاء نصر الله •

واعظم مالاقى ابن تيمية فى جهاده من المحاربة والصراع كان على يد الفقهاء من ناحية ، والمتصـــوفين من ناحية ثانية • ومن المدهش أن يكون قضاته خصومه . فقد عقدت احدى محاكماته فى عصر ؛ وحشر له الفقهاء من غلاة الجامدين ؛ وأعداء البحث ؛ وانطلق كل يرسل ما فى جعبته من السهام فاذا تكلم محـاولا الرد قوطع ؛ واذا استشهد غولط ؛ حتى ضاقت أنفاسه وعيل صبره فسأل ما ذنبه ؟ فقال ممثل الاتهام (شمس الدين بن عدلان) أنت تقول إن الله فوق العرش حقيقة يتكلم بحرف وصوت ويشار اليـــه الاشارة الحسية فقام ينفى عن نفسه ما سمع فهاجمه - رئيس المحـاكمة القاضى ابن مخلوف وأسكته ؛ فسأل ابن تيميه ومن يكون الحكم ؟ فقـال أنا ، فرد عليه مستهزئا كيف تخاصم وتحكم ؟فأمر بحمله الى السجن وصبر الرجل على محنته كما صبر سلفه الامام ؟

ومن العجيب ان ابن مخلوف هذا قد فسد الأمر بينـــه وبين حاكم مصر ، وهم صاحب الأمر أن يأخذ من ابن تيمية كلمة توجب عقابه فأبى

وامتنع ، حتى قال ابن مخلوف ما رأينا أعفى من ابن تيمية [١] ؛ لم نبق ممكنا فى السعى عليه وحين قدر علينا عفا وأصلح •

الا يذكرك هذا بموقف ابن حنبل من ابن أبى دؤاد ؟ ثم ألا ترى فى ذلك أثرا واضحا لاقتداء التلميذ بالأستاذ ، وترفعهما عن حزازات البشر ونزوات الناس • أما المتصوفة فقد غلوا أكبر غلو فيما زعموه من الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ومضوا بالعامة فى طريق ملبد كثيف . وكان الفقهاء يهابونهم ويجاملونهم وينسبون اليهم من الكرامات والمكاشفات ما يرتفع بهم ؟ الى ذروة الانبياء والمرسلين بل ان بعضهم كان يرى درجته فوق النبى ؛ لأن النبى يتلقى عن جبريل • وهو يتلقى عن ربه مباشرة • وكان لهؤلاء حظوة بالغة لدى ولاة الأمر من الملوك فازدادت ـ بذلك مكانتهم فى الدولة وقدس العامة كل ما يروجونه من الآراء والمعتقدات • ولو كان ابن تيمية كغيره لسالم وحايد ولكنه تحدى العاصفة وشهر بهم فى كل مجتمع وكتب الكتب الخاصة بتزييف آرائهم وكشف أضاليلهم وقد علم أن الشيخ نصر المنبجى من أساطينهم فى مصر وله من الحظوة لدى أولى الأمر ما يجعله صاحب الأمر والنهى ؛ فكتب اليه ابن تيمية مقالا فى ثلثمائة سطر ؛ أنكر به مذهبه ورد باطله وأيد حججه بالقرآن المبين والسنة الصريحة فثارت ثائرة المتصوف المتصعب ؛ واستعان بالناصر قلاوون؛ فأمر بمحاكمته بدمشق ؛ وقد استطاع ابن تيمية أن يظفر بالبراءة لما أبداه من الحجج والبراهين ولكن ذلك لم يمنع أنصار الدروشة الكاذبة من استدعائه بمصر وسجنه بعد مقاضاة زائفة؛ وقد قبل المحنة فى ثبات وخشوع • ولا غرو فهو غرس طيب لصاحب المحنة الأولى ؛ وفى هديه سار ! لقد رفع ابن تيمية راية أحمد فى عصر المماليك. واذا كان قد خالف صاحب المذهب فى بعض أحكامه ؛ فذلك خلاف الرأى والنظر ولم يقل أحد ان ابن حنبل قد جعل آراءه حتما مفروضاً ولا محيد عنه •

ولكنه اجتهد فى ظلال النصوص وترك لسواه أن يجتهد وقد اجتهد

---

(١) عصر سلاطين المماليك ج ٣ ص ٢٣٠

ابن تيمية بعد أن درس المذهب الحنبلى ، وأفضت به دراسته الى آراءجديدة قيمة أضافت للفقه الحنبلى ثروة جديدة !!! فكأن الرجل بتجديده قد أسهم فى رفع البناء واقامة الصرح على أساس ثابت متين ... أما حملته على الأضرحة فقد كانت شعلة جديدة رفعها ابن تيمية ليتلقفها ـ بعد قرون ـ حنبلى جديد هو محمد بن عبد الوهاب .

لقد كان وجود ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بالعصر المملوكى ؛وهو عصر التقليد المحض شذوذا نادرا يقع موقع العجب والتساؤل لأن هذه الفترة من تاريخ التشريع الاسلامى تعتبر أجدب الفترات وأمحلها على كثرة ما وضع فيها من المتون والحواشى والتقارير حتى ليقول الاستاذ محمد الخضرى (١) عن هذا الزمن الماحل (لم يكن من الواضح أن أكتب شيئا فى هذا الدور لأن رياح الاجتهاد فيه قد ركدت ؛ وليس فيه من المزايا ما يملى على الكاتب وينطق القائل !!! ثم يقول ، ولكن لما رأيناه من اتصال هذا الدور بنا وحاجتنا الى النهوض والاقتداء بصالح سلفنا أردنا أن نوضح مافيه من العيوب ومتى ظهرت أمكن ذوو الفكر والمقدرة أن يقوموا بعلاجها) ونحن نرى أن الاستاذ الخضرى قد أعجل عن أن يكتب فيه فصلا هاما يبين فيه أثر ابن تيمية وتجديده ؛ ويعرض للمسائل الفقهية التى خالف فيها الأئمة ويبين منحاه فى التجديد كما يذكر تلميذه ابن القيم وكيف اقتفى أثره وسار فى التجديد على نهجه !!!!

واذ ذاك يكون المؤرخ للتشريع قد أنصف العهد المملوكى انصافا حميدا ، أما أن يقرن الاستاذ الخضرى ابن تيمية وابن القيم بفقهاء العصر المقلدين كالنووى وعزالدين والانصارى والسيوطى والسبكى وابن دقيق وغيرهم من أرباب التقليد المحض فهذا ما يجافى الواقع وينافيه !!! وأنا أعرف من أجلة الفقهاء فى العصر الحاضر من يبغضون ابن تيمية دون أن يلموا بفقهه ولا أزعم أن الاستاذ الخضرى من هؤلاء ، ولكنه قد أعجل فنسى وكان خيرا لو تمهل فذكر !

مضى ابن تيمية ولم تمض تعاليمه !!! بل انشق قلب الجزيرة العربية

---

(١) تاريخ التشريع ص ٣٧٩

بعد أربعة قرون عن عالم حنبلى فذ قرأ فقه الامام أحمد قراءة فاحصة ثم درس كتب ابن تيمية دراسة المعجب المتأمل !!! ورحل من بلدته الى المدينة المنورة فالبصرة فبغداد فكردستان فهمدان، فأصفهان، ثم رحل الى مسقط رأسه بعد هذه الدراسة النافذة وتلك الرحلة التى ألم فيها بأحوال المسلمين فى بقاع العالم الاسلامى وأخذ يقارن ما قرأ فى الكتب عن السلف وما عليه المسلمون من تأخر وانحطاط فثار ثائره واندلع فى صورة بركان متوهج يرمى بالشواظ المحرق !!! هؤلاء هـم المسلمون ؟ فى كل قطـر يضلون سبيل التوحيد فيجعلون مع الله شركاء اذ يسارعون الى الاضرحة والقبور فيقدمون النذور والقرابين ويسألونها النفع والخير ويترامون على حجارتها البكماء كما يترامى الابن المذنب عى قدمى والده ؟ بل انهم جاوزوا الاولياء الى النبات فهذه شجرة يطاف حولها وهذا نبع يشرب منه للاستشفاء وهذه نفوس تذل للحجارة ، وهى لغيرها من ظلمة الملوك وفجرة الامراء أذل وأخضع ولن تقوم عزة اسلامية وأبناء الشريعة فى هذا الوضع المشين. فلابد من اصلاح ! ولابد من تغيير ... !!!

ثم ما هذه الكتب الفقهية التى يقرؤها المسلمون فى مشارف الارض : انها اختلافات جافة وقشور لفظية باهتة وسرد لأقوال أناس من المتقدمين وعكوف على نصوص جامدة ؟ دون اجتهاد وتجديد !!!!

فأين الكتاب والسنة ؟ وأين الرجوع الى آثار السلف ؟ انه يعلم من دراسة مذهب أحمد أن الامام الممتحن كان يرجع بمصادره الى الكتاب والحديث بادىء ذى بدء ثم اذا اجتهد فى حكم قايسه بنص ثابت من الأثر وقد كره تدوين الآراء لأئمة الفقه فى عهده كيلا تصد الناس عن النصوص الدينية فى الكتاب والسنة ؟ فما لنا نجعل آراء الفقهاء كل شىء فلا نسأل أى فقيه عن دليله وبرهانه ، بل نتقبل حكمه قضية مسلمة لا تقبل النزاع !! أعقمت الارض أن تبعث مجتهدا من طراز الاوائل ، وقد تغير الزمن وجدت أحداث تتطلب الفتوى وتحتاج الى استلهام الكتاب والحديث !! ثم انه يطالع كتب ابن تيمية الفقيه الحنبلى فيجده شجاع الرأى يفتح باب التجديد ويحارب المقلدين بأسلحة لا تفل ؟ فيتساءل عنه ؟ فيعرف أنه حنبلى يذهب مذهب أحمد

فى الرجوع الى السلف ؟ وعدم التقيد بأقوال الفقهاء ؟ ممن يخطئون ويصيبون. واذ ذاك يجد فيه معجزة اخلاص ويؤمن بمذهبه التجديدى، ويصيح صيحة فيوقظ العيون النائمة ويفتح مغاليق العقول .

لقد تعرض ابن عبد الوهاب الى العسف والاضطهاد حين قام بدعوته فى مسقط رأسه ، « عينة » فانتقل الى الدرعية مقر آل سعود ، وكانت القبائل لعهده كما يقول الاستاذ أحمد أمين (١) أشبه شىء بحالتها فى الجاهلية، كل قبيلة تسكن موضعا يرأسها أمير منها هذا أمير فى الاحساء وهذا أمير فى العسير ؟ وهؤلاء أمراء نجد ؟ ولا علاقة بين الامير والامير الا علاقة الخصومة غالبا ثم تتوزعها أيضا الخصومة بين البدو والحضر ، فمن قدر من البدو على خطف شىء من الحضر فعل ؟ ومن قدر من الحضر على بدوى انتقم ؟ والطرق غير مأمونة والسلب والنهب على أشدهما ؟!!

هذه الفوضى الاجتماعية مع ما أفضنا فيه من الفوضى الدينية جعلتا ابن عبد الوهاب يفكر فى انقاذ المسلمين أفرادا وجماعات فلابد من أن تحرر عقائدهم الاسلامية تحررا يرجع بها الى السنة والكتاب ؟ ولابد أن يعيش الافراد والجماعات آمنين على أرواحهم أن يتخطفهم الناس فلا سلب ولا اغتيال ولابد قبل ذلك كله أن تمزق هذه الكتب الوثنية التى تمتلىء بالخرافات والاضاليل؟ ولن يكون ذلك بغير معاونة سلطان قاهر ؟ يملك السيف والقوة ؟ ويؤمن بالتجديد والنهوض !!!

وقد وجد فى الأمير محمد بن سعود ضالته المنشودة فتعاهد الرجلان على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع ؟ ونشر الدعوة فى جميع الجزيرة العربية باللسان والمنطق أولا ثم بالقوة الصارمة ثانيا وقد نجحت الدعوة السلفية الى الكتاب والسنة نجاحا باهرا ولولا وقوف الدولة العثمانية فى وجهها بالمدافع والجيوش والاساطيل لأنقذت المسلمين مما ران عليهم من العجز والجمود فى وقت قريب !!! ولكنها برغم فشلها الحربى قد جذبت اليها الانظار من كل مكان وظلت تعاليمها تنتقل الى عصرنا هذا ؟ فلها فى كل وطن أشياع وأتباع .

---

(١) زعماء الاصلاح ص ٧

لقد قام فى الهند زعيم وهابى هو السيد أحمد لقن الدعوة السلفية فى مهدها بالحجاز حين حج البيت ورجع الى بلاده فبث تعاليمهما وجمع حوله الأنصار ممن تحرروا من التقليد والجمود، كما زار الامام السنوسى مكة ثم رجع الى الجزائر تتقدمه أفكاره الوهابية فدعا الى التجديد والتحرير ...

أما اليمن فقد سعد بأكبر علمائه الامام الشوكانى فكان داعية الوهابيين الاول وفى مصر قام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا بمحاربة الجمود الفكرى وفتح ميادين الاجتهاد ومات الاستاذ الامام بعد أن خطا خطوات تقدمية فى الاصلاح ؟ وفتح باب الاجتهاد فتحا لا جمود فيه ... فرأينا تلاميذه يقتدون به ؟ فلا يتقيدون بمذهب معين ولمن شاء أن يرجع الى فتاوى المنار من ناحية وآراء الأستاذ الأكبر عبد المجيد سليم من ناحية أخرى فسيجد التقارب التام بين المذاهب الاسلامية والتحرر المطلق من التقليد الجامد وتلك ثمرة ابن عبد الوهاب !!!

على أننا نلحظ تأثير ابن تيمية المباشر فى هذا الاتجاه فقد طبعت دار المنار وغيرها مؤلفات الرجل وعلقت عليها ودفعت بها الى المشتغلين بالفقه ففتحت فتحها المبين . وكان لها من الذيوع والقبول ماعجل بثمرتها المشتهاة .

واذن فقد أثر ابن تيمية بمؤلفاته تأثيرا مباشرا فى النهضة الفكرية بالقرن العشرين كما أثر عن طريق الدعوة الوهابية تأثيرا غير مباشر بالتحرر الفكرى الناهض والخلاص من الخرافات الضالة والرجوع بالأحكام الدينية الى كتاب الله وسنة الرسول!! وبعد ؟ أفليس ابن عبد الوهاب ثمرة من ثمار ابن تيمية !! ثم أليس ابن تيمية ثمرة من ثمار أحمد بن حنبل ، فبه يبدأ الفضل واليه يعود !!

نظـــرات

كشفنا فى الفصول السابقة عن ورع الامام وزهده ؟ كما جلونا ثبـاته الرائع وصبره العجيب جلاء يجعله موضع القدوة والاسوة ثم خصصنا فقهه وحديثه ببعض الشرح والتفسير لتكتمل لنا صورة واضحة عن حياته الرفيعة بناحيتيها الخلقية والفكرية !! ونحن فى جميع ما اكتبناه معجبون مقدرون !

ولكن اعجابنا الزائد يدفعنا أن نسجل ـ فى هذه الصحائف ـ ما قد نختلف عليه من وجهات النظر ولا نعنى بذلك أننا نرى الحق الجازم فيما نراه ونرى غير الحق فيما سلك ؟ ولكننا نجد فى حياة كل عظيم موضعا للخلاف صغيرا كان أم كبيرا وأحمد أحد هؤلاء العظماء الذين أثروا فى مجتمعهم ودينهم أشد التأثير فلا مناص من تحليل آرائه وتفسير نوازعه ولا مناص اذن من الاتفـاق فى ناحية والاختلاف فى ناحيـة أخرى ـ شأنه فى ذلك شأن كل امام خطير !!

لقد أعجبنا بالأمام اعجاباً كبيرا ظهر للقارىء فيما قرأ ... ويدفعنـا هذا الاعجاب المفرط أن نتتبع مواقفه وآراءه فى حيدة تامة وانصاف عادل.. واذا كنا قد أيدناه فى أكثر ماصنع فنحن هنا نعارضه فى أشياء هامة قد نجد من يشاركنا فى معارضتها وقد لانجد ، ونحن نبسطها هنا فى كتاب يضم تاريخه راجين أن نصل الى الحق فى وقت قريب !!!

أول هذه الاشياء موقفه من الجدل والمناظرة فقد كره النقاش وذم أصحابه ؟ ووجهته فى ذلك أنه لم يكن فى زمن الرسول والصحابة فأحرى به ألا يكون الآن ، ونحن لا نرى معه فلكل عصر ثقافته ومميزاته وقد أصبح النقاش أداة الاقناع فى الزمن العباسى، ولا يمكن لصاحب الرأى من الفقهاء أن يعلن حجته دون نقاش فعلى أرباب المذاهب الدينية والفـكرية أن يدرسوا مجتمعاتهم دراسة فاحصة ؟ ثم يتسلحون ازاءها بما يضمن لآرائهم

الظفر والانتصار !!! فنحن الآن فى العصر الحديث ــ مثلا ــ نجد النقاش الفكرى حتما مفروضا أمام المذاهب الدينية والاجتماعية والسياسية الوافدة من الغرب !!! فاذا تراجع رجل الدين عن دراسة ما حوله والرد عليه بأبلغ نقاش وأوضح حجاج ؛ فقد خسر معركة الاصلاح ؛ وكذلك الشأن فى العصر العباسى تماما بتمام ؛ واذا لم يكن الجدل سبيل السلف من الصحابة ؛ فقد كان سبيل الشافعى رضى الله عنه وهو أستاذ أحمد وموجهه وكثيرا ما سمعه ابن حنبل يناظر ويطاعن ويدفع الرأى بالرأى والحجة بالحجة ؟! حتى قهر أعداءه ونشر مذهبه أفلا كان له فى ذلك قدوة تامة وحجة بالغة !! ثم ها هو ذا تلميذه ابن تيمية يأتى بعد أربعة قرون فيكون الجدال سبيله وعدته ؛ فلولا مجالس نقاشه ومعارك حجاجه ؛ لكان كغيره من فقهاء عصره ولكنه قام بثورته التجديدية سالكا وجه الاقناع والحجاج فجلى وفاز ؛ الحق أن الامام أحمد كان ــ كقائد جماعة كبيرة محتاجا الى أن يتخذ من النقاش سلاحا ينتصر به !! وقد أبنا فى بعض الفصول أسباب كراهيته للنقاش ؛ ومهما تكن هذه الاسباب مقبولة فى منهجه ومنحاه فقد كان من الخير أن يناقش الامام ويطاحن ؛ ولعل الامام قد انتصر فى فكرته بتقواه وورعه وثباته وصبره ؛ أكثر مما انتصر بعقله ولسانه !!! ونحن نعتقد أن تكوينه النفسى والعقلى لم يؤهله لذلك ؛ وكل ميسر لما خلق له!!!

ثانيا ــ نظرة الى الصحابة رضى الله عنهم فقد عد « كل من صاحب الرسول ــ سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة ــ صحابيا كبيرا وجعله بهذه الصحبة التى قد تستمر ــ ساعة واحدة أفضل من التابعين ولو عملوا كل الخير ؛ وقد حرم أن يوجه نقد ما الى أحدهم اذ أنهم فى منزلة عالية لاتجيز لأحد أن ينقد أو يؤاخذ ، ويستدل على ذلك بحديث « خير القرون » وسواه، وأحمد بذلك يخلع عليهم عصمة ليست لهم واذا كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قد آخذه ربه على بعض ماتصرف فيه ؛ فقال « عفا الله عنك لم أذنت لهم » وقال وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا انها تذكرة .. اذا كان للرسول بعض مايؤاخذ عليه أفلا يكون الصحابى هنات تكون موضع الملامة والمؤاخذة ؛ فتشرح آراؤه ؛ وتنتقد مواقفه ..

هذا أمر بديهي لدى من يعلمون ان البشر أيا كانوا يخطئون ويصيبون وقد سبق أن أفضت في توضيح ذلك ببحث اجتزىء منه بهذه الفقرات(١)

ومن الخير أن نبدأ بتحديد معنى الصحابى ؛ وهو فى أبسط حدوده يطلق على كل انسان حصلت له رؤية الرسول ومجالسته ؛ فجميع من سعدوا بمشاهدته صلى الله عليه وسلم، فى حياته بعد الاسلام صحابة يشرفون بهذه الصفة المباركة ؛ حتى عبد الله بن أبى ؛ رأس النفاق بالمدينة فقد قال الرسول .. لمن هم بقتله .. معاذ الله أن يتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه ؛ فعبد الله من أصحاب محمد ؛ كما ينطق الحديث فليت شعرى أيطلق الحديث القائل «لاتسبوا أصحابى» على جميع من ظفروا بالصحبة ، أم يخص من باعوا أرواحهم وأموالهم لله ؛ من المؤمنين الصادقين ؛ لابد أن تكون الطائفة الأخيرة هى المقصودة دون تردد ؛ فكل من تمسك بأخلاق القرآن من أصحاب الرسول وشهد تاريخه بمروءته وصدقه، فهو موضع التجلة والتبجيل ؛ ولا يجوز لمسلم يدين بالاسلام أن ينتقصه فى شىء ؛ وكل من حامت الشبهات فوق تاريخه فهو موضع الملامة والنقد ؛ لأن الناس سواسية أمام الاسلام ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ..

ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا من الدين والجهاد بمنزلة واحدة، ففيهم من أسلم فى فجر الدعوة منذ أعلنها الرسول، وقطع السنوات المتتابعة فى الجهاد والجلاد ؛ وفيهم من أسلم قبيل الفتح أو بعده والسيف مصلت على رأسه ، وفيهم من بذل الكثير من الدم والمال وادخر القليل ؛ وفيهم من تقاعس ولم يبذل شيئا من دمه أو ماله ؛ ومن الظلم البين أن نرتفع بهؤلاء جميعا الى منزله واحدة ، فيكونوا فوق النقد والتصويت ، بل على التاريخ أن يهيىء لكل انسان منزلته ؛ وفق ما أسلف من أعمال ؛ والله عز وجل يقول (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ـ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) .

---

(١) مجلة الرسالة ، السنة العشرون سنة ١٩٥٢ م

واذا كان بعض العلماء يرى أنه لايجوز لأحد من الناس أن يجعل الخطأ ذريعة الى نقد المخطئين ، فماذا يفعل فى الصحابة وقد أحلوا لأنفسهم ما حرمه عليهم الآن ، فخطأ بعضهم بعضا وطعن فريق منهم على فريق آخر يناوئه أفيكونون بذلك قد خالفوا قول الرسول « لاتسبوا أصحابى » أم عرفوا ان الصحبة وحدها لاتمنع الملام والنقد ثم ان هناك فرقا بين السب والنقد ، فالأول تشهير لايقوم على دليل والثانى تخطئة تنهض على برهان ، ومايوجه الى الصحابة لايخرج من النقد الى السباب .. »

هذا كلام قلته قديما وأعيده ، ليعلم الناس أننا لسنا معه حين يجعل الصحبة فوق النقد اذ أن العصمة لله وحده ؛ ونعتقد أن ورعه الصادق قد جعله ينحو هذا النحو ، اذ يفضل أن نغمض الطرف عما سلف متجهين الى الحاضر لا الى الماضى ؟! .. ولكن ماذا نصنع ؟ ونحن لانقدر أن ننسى الماضى فهو يتلى ويدرس فى كل زمان ومكان ؛ أفلا يأخذ كل انسان مكانه المناسب وموضعه المعقول ..

ويجرنا هذا الحديث الى رأى الامام فى ترتيب الصحابة « فهو يفضل أبا بكر فعمر فعثمان ثم يأتى بعد ذلك أصحاب الشورى الخمسة على والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد وكلهم امام » .

ووجهته فى كل ذلك أن الصحابة قد اختاروا أبا بكر فهو أفضل الجميع ثم اختاروا عمر بمشورة أبى بكر فهو أفضل الجميع؛ عدا أبا بكر ثم اختاروا عثمان فهو أفضل الجميع عدا عمر وأبا بكر ؛ ثم انعقدت الشورى فى الخمسة الباقين فهم فى مرتبة واحدة ؛ ونحن لانرى هذا الترتيب .. اذ أننا لانجعل اختيار الصحابة كل شىء ..

بل ننظر الى تاريخ كل صحابى وكفاحه ونضاله .. ثم نحكم عليه ؛ وقد كان الامام أبو حنيفة يرى الترتيب هكذا ..

(أبو بكر فعمر فعلى) وهو مانراه اذ أننا نقدر لكل انسان ماقدم فى خدمة الاسلام واعلائه ثم نحكم .. أما اختيار الصحابة فأمر شخصى يرجع الى اعتبارات ملابسة لاتمت فى بعضها الى الكفاح السالف والموهبة الشخصية

وعلى كل فنحن فى هذه الناحية مع أبى حنيفة لا مع أحمد .. ولا يظن أحد أننا نجادل فى أمر قد انتهى ، ولكننا نجدد نظرة الاسلام ، الى الأشخاص فلا نقيم وزنا لغير العمل والتقوى .. فمهما أجمع فريق من الناس على أمر فلابد من اعادة النظر فيه وقياسه بمقياس الاسلام .. وهو مقياس يجعل الناس سواسية كأسنان المشط ثم يرتفع بصاحب الجهاد المخلص والكفاح الدءوب .. وبهذا التجديد يستطيع كل فرد فى دنيا الاسلام أن يرتفع باخلاصه وكفاحه عن غيره من الوادعين الساكنين ..

ولكل مجتهد نصيب كما يقال ..

ومما نختلف فيه مع الامام ونقف بازائه موقف المعارضة والحجاج ، مارآه من طاعة الامام المتغلب وان كان فاجرا فهو يقول فى احدى رسائله (السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة ..

ومن خرج على امام من أئمة المسلمين وكان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأى وجه كان ، بالرضا أو بالغلبة .. فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين فان مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية»(١) .. أقول اننا نخالف الامام فى ذلك ونعارضه ونستدل بسيد الصحابة أبى بكر وقد جعله الصحابى الأول فى ميزانه ، فقد قال فى أول خطبة ألقاها بعد مبايعته بالخلافه ..

(أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فأعينونى وان رأيتمونى على باطل فقومونى أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت فلا طاعة لى عليكم أقول هذا واستغفر الله لى ولكم ..) كما نستدل بقول عمر وهو الصحابى الثانى فى رأى أحمد ..

«أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فصاح أحد المستمعين لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .. فقال عمر .. الحمد لله الذى جعل فى الرعية من يقوم أعوجاج أمير المؤمنين .. »

---

(١) المناقب ص ١٧٦

فأبو بكر يعلنها صريحة واضحة فيقول ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت فلاطاعة لى عليكم ، والامام الفاجر عاص الله فلا طاعة لهويجب الخروج عليه وضعا للأمر فى نصابه لأن صلاح الراعى صلاح للرعية وفساد الراعى فساد للرعية واهلاك ..

وعمر الفاروق يدعو صريحا على الملأ : من رأى فىاعوجاجافليقومه فلا يجد مجاملة من احد ، ولكنه يسمع اعرابيا من افناء الناس يقول (والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا) واذ ذاك يصيح عمر شاكرا الله أن رزق الرعية من يدفعها الى امتشاق السيوف فى وجه الحاكم المعوجدون تهاون أو استخفاف ..

فلماذا بعد ذلك نسكت عن الامام الفاجر ونميل الى الاغضاء ..

يخيل الى ان الامام أحمد وقد عاصر عهد المامون والامين والمعتصم والواثق والمتوكل ورأى الثورات تشب فى كل مكان فتأتى على الأبرياء والآمنين وتمضى عاصفة بالضحايا العديدين ، حيث تعج الدماء ، وتتطاير الأشلاء المتناثرة .. ثم تنتهى الى الخمود والفناء دون تغيير جوهرىأوتعديل سياسى .. يخيل الى أن الامام أحمد رأى ذلك فأزعج احساسه وأقلق خاطره .. ألم يشاهد فتنة الأمين والمأمون فعرف كيف استهدفت بغداد الآمنة لأخطر الزعازع وأعنف الأهوال ، فأصبحت بين ساعة وساعة لهيبا يشتعل وجحيما يتضرم ، ثم سكنت الثائرة ، وراح الأمين وجاءالمأمون فلم ينصف اهل السنة وأوقد جذوة الاضطهاد فاصطلى بنارها الآمنون وفى مقدمتهم أحمدورفقاؤه ، ممن تمسكوا باعتقادهم وآثروا مايرون صحته .. ففيم كانت هذه الثورة ؟ والى أى غاية ذهبت بها الأقدار .. ؟

ثم هؤلاء الثوار فى مصر وخراسان واليمن وفارس قد أعلنوا انفصالهم ونادوا بسقوط أمير المؤمنين فى بغداد ، فماذا كانت النتيجة

لقد أرسلت الجيوش المتلاحقة اليهم وسالت الدماء ودمرت مدنوخربت منازل .. وبقى الخليفة بعد ذلك كله حاكما نافذ الكلمة مطاع الرأى .. فهل آزعجته هذه الثورات ..

لعل هذه وجهة أحمد، ولكننا نراهاتتعارض مع قدسيةالاسلام وعدالته
واذا كان الامام مالك يرى جواز امامة المفضول فليس معنى ذلك أنه يوافق
أحمد لأننا نفرق بين فاجر ومفضول ، فالمفضول كما نعتقد هو الذي يكون
غيره أكفأ منه فقط مع صلاحه وعدله ، أما الفاجر فهو الذي خالف شريعة
الله ، وجاهر بانتهاك محارمه ، وذلك مالا تجوز طاعته عند مالك وسواه ..
وقد كان أبو حنيفة صريحا حين أعلن عدم الخضوع للظلمة وأيد العلويين
دون العباسيين ، فهو بذلك يسير فى ضوء الاســـلام .. وينهـــج منهـــج
أبى بكر وعمر ..

وما موقف سعيد بن جبير فقيه المدينة من الحجاج ببعيد .. فهم جميعا
يجمعون على محاربة الفاجر واسقاطه من سمائه اذ أن النـــاس على دين
ملوكهم ، والحق أحق أن يتبع .. هذه ثلاثة أمور نعارض فيها أحمد وغير
كثير أن نخالف مصلحا كبيرا وفقيها مشرعا قضى عمرا مديدا فى الفتوى
والتشريع فى ثلاثة أمور فلابد اذن من الخلاف . ولا نكاد نجد مؤرخا كتب
عن بطل سياسى أو فكرى دون أن يختلف معه فى تعليل موقف أو تفسير
رأى فلكل وجهته ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ..

وأعجب ما نلاحظه أن الامام أحمد ذلك الرقيق المرهف الذى ينفر من
وسائل البطش والقوة ويرى الخضوع للمتغلب الفاجر حقنا للدماء وصيانة
للأرواح قد خلف من بعده خلف ينتمون اليه ، ولكنهم يتخذون من العنف
والقوة وسيلة لتحقيق آرائهم واشباع رغباتهم ؟ فقد علا صوت الحنابلة ببغداد
بعد تولية المتوكل علوا مدويا ، وأصبحوا وهم جمهرة العامة يتدخلون فى
كل شىء ويقفون كل مرصد ومنهم غلاة متزمتون يسيئون الى مذهبهم دون
بصر أو تفكير .. ولو أدركوا أحمد لبرىء من فظاظتهم الغالبة ، وأباح
ماحرموه وغالوا فيه من الأمور بلا هدى ولا كتاب منير ..

هؤلاء الغلاة قد اشتطوا فى محاربة خصومهم واتخـــذوا من القـــوة
والبطش عدة مؤذية وحسبك أن تعلم أن الامام المفسر المؤرخ الفقيه ابن جرير
الطبرى ذكر فى بعض كتبه عن أحمد انه كان محدثا ولم يكن فقيها ..
أفتدرى ما حدث له؟! لقد تجمهر الحنابلة ومنعوا الناس من الدخول الى مجلسه

ورموه بمحابرهم فلطخت ثوبه ووجهه ويديه .. فاضطر إلى ملازمة داره ، خوفا على نفسه ، فرموه بالحجارة حتى ملأت الطريق وعلم الوالى ، فركب صاحب الشرطة ومعه ألوف الجند لمنع العامة ورفع الحجارة ، فاذا كان هذا المسلك الباطش مسلك الحنابلة ازاء مفسر فقيه مؤرخ امام .. فكيف يكون مسلكهم مع مخالفيهم من العامة وذوى المذاهب المخالفة وهم بعد أتباع امام ينفر من البطش ويدعو الى السكينة والهدوء ..؟

رحم الله أحمد ، فقد كان لاينسب نفسه الى الفقه تواضعا واستكانة ؛ ولو سمع ماقاله عنه الطبرى لوافق وحبذ ، ولكن التاريخ لايقبل تواضعه النبيل مهما بالغ فيه فهو فى حكمه العادل ، فقيه حجة ، وعالم مكين وقد خالفناه فيما نرى وجه الخلاف فيه واضحا غير مطموس من الآراء العامة فى السياسة ومنازل الناس .

أما آراؤه الفقهية - فى الفروع - فلسنا بأهل للحكم عليها ومفاضلتها بغيرها من الأقوال ، فللمقارنات بين المذاهب التشريعية فقهاء متخصصون وعلماء متبحرون وقد وضعوا عشرات الكتب المبسوطة الشافية فى باب الموازنة والترجيح ، فاليها يرجع من يريد .. والرجل بعد كغيره من الأئمة له حجته الواضحة واستنباطه القويم ، ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ..

مقارنة فقهية

فى الميــزان

لم تكن الأحكام الشرعية فى مختلف فروع الفقه الاسلامى وقفـا على مجهود فرد معين ، تنسب اليه ، فكل امام من الأئمة ـ رضوان الله عليهم ـ قد أدلى بدلوه ، وأسهم بنصيبه حتى ذخرت مكتبة الفقه بمئات المؤلفات مابين شرح واســتنباط وتقعيد وتدليــل !! !! بحيث يجوز لك أن تتصور التشريع الفقهى صرحا ناهضـا تتابع القائمون على بنائه من لدن محمد بن عبد الله صلوات الله وسـلامه عليه وكل بان يترك أثره فى الصرح ، فهناك من يضع لبنات ، وهناك من يقيم سـطرا بأكمله ، ومازالت السنوات تتابع حتى نهض البناء وشمخت ذراه !!!

وانت تبحث عن هؤلاء الجنود المخلصين فتجد نمطا رائعا من عشاق المعرفة وطلاب الحقيقة ـ جيلا بعد جيل ـ أخذت تدفع بهم الأيام المتعاقبة ـ باحثا خلف باحث ـ حتى ليعز عليك أن تزن عمل كل فقيه ممن أتت عليهم الاحقاب وأن تعرف فى هذا الطوفان المزبد كفاح كل فرد ونشاطه على حدة ... ذلك جهد لن يصل اليه باحث منقب مهما قرأ وتأمل !! !! ولكن هناك ـ من بين هؤلاء ـ أعلاما بارزين ضمن لنا التاريخ كثيرا من جهودهم الموفقة فى ميدان الفقه ، وأصبحوا بما قدموه للشريعة الاسلامية معارف مشـتهرة وكواكب لامعة ، وتتألق بالضوء ، وتشـع بالهداية ولن يكون فى ذكرهم الآن بخس لغيرهم فقد تضـافرت أسـباب خاصـة على التنويه بآثارهم والاشادة بمذاهبهم ونخص الآن من بينهم أبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد ، وقد يكون فى دنيا الفقه الاسلامى من رجحهم كفاية وافتاء وقياسا ، ولكن الحظوة السـابغة فى الذيوع والاشـتهار قد تمت

لهؤلاء !! !! وسألم برسالاتهم الفقهية المام الموجز المتعجل ، لنعرف هل كانوا يسيرون فى اتجاه مقارب أو أنهم كانوا يتقاربون ويتباعدون ولنبين كيف عاد اختلافهم المذهبى باليسر البالغ والخصب العميم ، فرفع الحرج ، وبعد الضيق !! !!

كان الامام ابوحنيفة أسبق رفاقه فى الزمن وهو وان عاصر مالكا . الا انه قد سبقه فى الميلاد والوفاة ... وقد تربى تربية عملية فتاجر وزاحم وعرف أحوال الناس وشئونهم فى التعامل والكسب معرفة الزميل المشارك ، فأفاده ذلك بصرا فى الرأى وصدقا فى الخبرة ثم شاءت له ظروفه أن ينشأ فى العراق حيث الرخاء والعمران وازدهار الحضارة وتنوع أسباب المدنية واختلاط الناس من كل ناحية وكل ذلك يحدث من الاسئلة فى الفقه والاستفتاء فى الحكم مالابد منه لدنيا الناس !! !!

والرجل فوق مزاولته للتجارة فقيه متمكن وعالم متطلع !! !!! وقد اتجه الى الفقه عن طريق الجدل فى مسائل الكلام !! !! فكان يتكلم فى الصفات والافعال ويناقش طوائف المعتزلة وذوى النحل الكلامية مناقشة اللسن ذى المقدرة الفائقة فى الحجاج والحوار ثم بدا له أن يترك هذا الميدان النظرى الى الفقه العملى ويعلل ذلك بأن الحاجة اليه ماسة والسؤال عنه ملح والاجابة عليه واجبة ، فهو أجدر بالبحث والاهتمام ، وقد ساعدته ملكته الخاصة على الاستنباط والتعليل ، فكانت تأتى اليه المسألة الجديدة فى مضمار البيوع والمعاملات ، فلا يجد لها نصا فى محكم الكتاب ، أو فتوى فى صحيح السنة فيقرن الشبيه بالشبيه ويقيس النظير بالنظير ، ثم يدافع عن فتواه دفاع المتمكن المتثبت وقد تجمع حوله تلاميذ بررة عرفوا قياسه ، وفهموا منطقه فكانوا جميعا أصحاب الرأى فى الاسلام ، لهم وجهتهم المعروفة وقياسهم الصريح !

ونستطيع أن نحدد رسالة أبى حنيفة فى ايجاز فنقول انه اكتسب من حياته التجارية الاولى خبرة يقظة بشئون الناس فى عالم متمدين

مزدهر من ناحية ، كما أنه بنشأته الجدلية فى ميدان الكلام قد حذق أساليب الاستدلال العقلى من ناحية ثانية ، ثم تفهـــــم أسرار الشريعة وعرف وجوه الاختلاف فقال بالرأى وفتح فى ميدان الفقه الاسلامى طرقا فسيحة عادت عليــه بالثروة والرخاء ... فرسالته اســتنباطية قياسية تقرن المجهول بالمعلوم وتلبى حاجة العصر تلبية بصــيرة ذات وعى وتدبير ..

أما الامام مالك فقد نشأ بالمدينة ، فحفظ حديث رسول الله عن أهلها واطلع على مالم يطلع عليه أبوحنيفة من الآثار النبوية وورث علم الجماعة من التابعين يعتصمون بالســـنة ولا يقولون بالرأى فنهج نهجهم وأخذ يفتى فيما يعرض عليه من المســائل بكتاب الله وســنة رسوله ، وقد أعانه على ذلك أن المدينـــة لم تكن واسعة الحضـــارة ، ولم تجد بهــا من وسائل العيش وأفانين المعــاملة مايمكن أن يتعسر حكمه على مالك ... فصادف لديه من ذخيرة رسول الله مــددا موفورا أسعفه فى أكثر مايريد دون تلكؤ أو افحام !

على أن الامام مالكا كان صادق النية حسن التواضــع فكان لايحجم عن أن يقول اذا سئل عن شيء ولم يعرفه ... « لاأدرى » .. وقد أخذ عنه تلاميذه مذهبه فجعلوا الحديث رائدهم وكانوا لايلجئون الى الاجتهاد فيما ورد فيه النص ولو ضعيفا ، فاذا امتنع النص اتجهوا الى القياس وهناك نادرة تقول ان الامام مالكا كان يقول اذا سئل ولم يعلم : لا أدرى نصف العلم ، فبلغ ذلك أبا حنيفــة فقال اذن لاأدرى لاأدرى كل العلم ، وسواء كانت هذه النـــادرة صحيحة أم مختلفة فانهــا توضح مذهب الامامين تمام التوضــيح فمالك فقيــه متحفظ يتمسك بالنصوص ويتواضع فيقول « لا أدرى » وأبوحنيفة فقيه متحرر يقول بالرأى ويقرن الشبيه بالشبيه والنظير بالنظير ،

على أن هناك تنازعا بين مالك وأبى حنيفة فى تبويب فصــول الفقه على النحو المعروف فى كتب الشريعة ، ففريق يقول .. ان أبا حنيفة هو صاحب هذا التبويب لانه دون كتبا فقهية بدئت بالطهارة

فالصلاة فالزكادة فالصوم فالحج فالبيوع فالمواريث ... وهكذا ثم ضاعت هذه الكتب دون أن يكتب لها الخلود ، وفريق آخر يقول ان صاحب هذا التبويب هو مالك رضى الله عنه لانه التزم هذا المنهج فى تدوين الموطأ وهو كتاب متداول مشهور وقد قال الاستاذ الاكبر مصطفى عبد الرازق فى كتابه (١) « ان الحكم فى هذه المسألة عسير الاثبات لان أبا حنيفة ومالكا كانا متعاصرين فلا يعلم أيهما بدأ» وأنا أرى أن الحكم فى ذلك غير عسير فمالك صاحب هذا الترتيب فى موطئه ولو أن أبا حنيفة قد ألف كتابا نهج فيه هذا النهج ، ماجاز أن يضيع وله تلاميذ عديدون وقد كانوا قضاة الدولة وأرباب النفوذ فيها ، وكثيرا ما أشادوا بآراء امامهم فى مؤلفاتهم ، فكيف يضيع كتاب مؤلف لمذهبه هذه الشهرة ، ولديه هؤلاء التلاميذ !! !! !! واذا كانت آراؤه الشفوية قد حفظت وتواترت أفيضيع له مؤلف محرر مشهور !! ؟

اذن فرسالة مالك فى الفقه الاسلامى هى المحافظة على النصوص النبوية والافتاء بها وعدم التوسع فى القياس الا ما تعينت فيه الحاجة وتعذر فيه النص فهو رجل محدث فقيه كما أننا نجزم أنه وضع الخطة الاولى فى تبويب الفقه وفق نظامه المعهود ، فكان كتابه الموطأ أول سفر تداوله الفقهاء ، ومع أنه أحاديث صريحة الا أن تبويبه وترتيبه فقهى صريح !! ...

ثم جاء الامام الشافعى والخلاف بين أصحاب مالك وأبى حنيفة على أشده فانتصر لمالك أستاذه وجالد عن مذهبه وكان الامام الشافعى بنشأته ومواهبه أهلا لأن يحدث جديدا فى دنيا التشريع ، فالرجل كان مطلعا على الادب والشعر اطلاع المتخصصين وقد درس ثقافة عصره ، أصيلة ومترجمة ، دراسة الباحث الولوع وكان يحذق أساليب الطب والتنجيم — على بعدها عن علوم الشريعة واللسان — حذقا مبينا ، وله بالفروسية والرماية دراية واسعة وشغف حبيب ،

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص ٢١٦

فالشافعى متعدد الثقافة واسع العقل ثم شاءت له طبيعته أن يتضلع فى الفقه تضلعا يستند الى ثقافة شاملة وبصر نفاذ ، وصاحب هذه الموهبة الرائعة لايكتفى بمذهب مالك أو يقتصر على مذهب أبى حنيفة ، فمع أنه قارب بين المذهبين فى مذهب ثالث يجمع مزاياهما المتفرقة فقد واصل التأمل حتى اهتدى الى وضع قانون كلى لأحكام الفقه هو مانسميه بعلم الاصول فأصبحت الامور الجزئية على يديه تندرج فى أحكام كلية ، وقد كشف عن وسائل الاستنباط وعلل الترجيح ومسائل القياس وأوجه الرد ، وبذلك تمت للفقه فلسفته الحقيقية وأصبح علما يستند الى قواعد متينة لايعصف بها اعتراض واهن ، أو نص مفتعل ، أو شبهة داحضة . وبوضع علم الأصول اكتمل للشافعى أكبر مجهود قام به فقيه دءوب ...

وقد نظر بعض المغرضين الى سلامة الاستنباط وصحة القياس فى الفقه الاسلامى فحسبوه مأخوذا عن الفقه الرومانى ، ولو درسوا كتاب الأم للشافعى لعلموا كيف كان الفقه الاسلامى أصيلا فى بيئته عريقا فى ملته !! واذا كانت أصوله تجرى على سنن منطقى من البرهان والدليل وتتسع لما تتسع له القواعد القوية من العموم والشمول . فذلك لا لأنه متأثر بالفقه الرومانى ولكن لأنه وجد رجالا كالشافعى رسموا له الخطة المحكمة وشقوا له المجرى الفسيح ...

هذه رسالة الشافعى فما رسالة تلميذه أحمد ؟

لقد عرفنا فيما سبق ان أحمد قد تتلمذ على الشافعى وقد علم على يده قواعد الاستنباط وعلل الاحكام وجمعت بينهما آصرة قوية من الود والاحترام أكدها هيام الرجلين بالحديث النبوى والانتصار للأثر على الرأى فى أكثر المسائل ولكن الشافعى لا يستمر فى طريقه مدافعا عن مالك ، بل يخالفه فى كثير من أحكامه ثم يضع مذهبا جديدا فى مصر ويسأل أحمد نفسه : ماذا يصنع ؟ أيتعبد بآراء الشافعى وقد لمس فقهه ونبوغه أم يهدف الى الحديث مباشرة فيجعله رائده .... وطبيعى ان يتغلب عليه الميل الاخير فينشط لجمع الاحاديث

من مختلف البقاع ويقدم لطلاب الفقه مسنده اماما يرجعــون اليه فى التشريع ثم يأخذ فى اصدار أحكاما مشبعة بروح الحديث فيخلف ثروة فقهية ممتازة ، لها دعامتها الثابتة ، وأساسها المكين وبذلك قرب أحمد من مالك أكثر من قربه الى الشافعى وقد سئل الامام احمد ، حديث من تأخذ؟ ورأى من تنظر ؟!

« فقــال حــديث مالك ورأى مالك (١) » ولولا اهتمام مالك بالحديث واتجاهه الى الافتاء فى ضوئه ماقرب أحمد منه !!

ونعتقد ان أحمــد قد ساعد بهــذه الثروة النبوية فى المســند مساعدة كبيرة فى خصوبة الفقه وازدهاره ، وقد يظن بعض النــاس أن جمع هذه الآثار محاربة مقنعة للقياس ، وليس الامر كذلك ، اذ ان من المســلم به أنه اذا كثرت النصــوص كثر مجــال الاستنباط والقياس وتعددت روافد التعليل والتشريع فبــدل ان يكون لديك مجموعة صغيرة من الأحاديث ــ كمجموعة الموطأ مثلا ــ تقيس عليها دون غيرها فقد أوجد لك احمد مجموعة كبيرة ، وفتح بذلك ــ قصد أم لم يقصد ــ ميدان القياس عند الحاجة اليه ، هذا الى ان وجود هذه المجموعة الكبيرة : آثارا وفتاوى ، يمنح الشــجاعة الفائقة من يريد ان يتصدر للافتاء فهو يملك بها مفاتيح كثيرة يديرها فى شتى الابواب كما يشاء ، واذ ذاك تنفتح المغاليق ، فرسالة احمد فى الفقه الاسلامى امتداد لرسالة مالك على وجه متسع فيــاح ، وكان لا بد لهذه الرسالة أن تنتشر فى بغــداد ــ بوجه خاص ــ فيعرف أهلهــا كنوز السنة الموفورة بعد أن كادت هذه الكنوز تصبح على يد بعض الأحناف موضع الاتهام !!

هذه رسالات الأئمة الاربعة ، نبسطها لنقول للناس ان هــؤلاء الرجال وأمثالهم قد نفعوا التشريع الاســلامى متفقين ومختلفين فهم فيما اتفقوا عليه قد أصدروا أحكاما لا تقبل النقض فعصــموا من

---

(١) الفقه الاسلامى ونظرية العقد ص ١٦٠

الشك وجزموا باليقين وهم فيما اختلفوا فيه قد أوسعوا المجال لرواد البحث الفقهى ، كى يقطف كل ناظر ما يريد ، دون حرج أو تأثيم ولن يكون الخلاف فى الرأى مابين امام وامام مدعاة للتعصب من تابعيه ، فالخلاف العلمى أمر طبيعى ، يصاحب العلم فى جميع أدواره، وقد وجدنا أصحاب المذهب الواحد يختلفون فتجد مثلا فى كتب الفقه قال : أبو حنيفة كذا ، وقال صاحباه كذا .. خلافا له ، وتجد فى كتب الشافعية والزيدية والمالكية والحنابلة مثل ذلك وهذا فى المذهب الواحد فكيف لا يكون فى مذاهب مختلفة !!!

لقد كان من رحمة الله أن تختلف أقوال الأئمة باختلاف مارجح لديهم من الدليل ، وقد قال عمر بن عبد العزيز .... مايسرنى أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا لأنهم ان اتفقوا لم تكن رخصة !!! بل ان الفقيه قد يختلف مع نفسه فيقرر حكما ثم يبدو له خلافه فيذهب الى غيره !!! وعلينا أن نقرأ ثم نختار دون تقييد ، وقد رأينا فى كتب التاريخ الفقهى شهادات رائعة وتزكيات بارعة يزفها امام الى امام عن خبرة صادقة واخلاص عميق ...

قال مالك بن أنس .... اجتمعت مع أبى حنيفة وجلسنا أوقاتا وكلمته فى مسائل كثيرة ... فما رأيت رجلا أفقه منه ولا أغوص فى معنى أو حجة (١) ...

وقال الشافعى ... اذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد أمن على من مالك بن أنس (٢) ...

وروى ان الشافعى وجد على باب مالك بعض الخيول من خراسان فقال له ما أحسنها فقال مالك ... « هى هدية لك يا أبا عبد الله» فقال الشافعى .. : دع لنفسك دابة تركبها فقال له أستحيى أن أطأ تربة تضم رسول الله بحافر دابة (٣) ...

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٢١١
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢١

وقال أحمد بن حنبل ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة الا وللشافعى عليه منة (١) وقال : الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه (٢) ونحن ننقل هذه الأقوال لنعلم أن التنافس فى تحصيل الفقه وتخريجه بين الأئمة لم يكن كتنافس أرباب العلوم الدنيوية مدعاة للتحاسد والتطاحن . بل غمرته روح الاسلام ، فكان تنافسا نبيلا شريفا يدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتى هى أحسن ....

وقد نجد فى صحف المتأخرين من الفقهاء بعض التطاول الشائن على مقام فقيه كبير تعصبا لفقيه آخر ... وأحرى بمن فعل ذلك أن يرجع الى أقوال من تعصب له ثم يمحو هراءه البغيض ، وليت شعرى من أحق برعاية فضائل الاسلام وآدابه من كاتب دينى يبحث فى حكم شرعى فيلزم الحيدة ويتجنب اللغو المقيت ....

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٥
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣١

غـروب

يقول أحمد ... لو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لى ذكـر ، وانى لأحب أن أعيش فى بعض تلك الشـعاب بمـكة حتى لا أعـرف (١) ويلى ... بليت بالشـهرة ، لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها (٢) ...

هذا حديث انسان متبرم بالنباهة وبعد الصيت ، فقد تنـاقلت الدنيا فى عهد المتوكل أحاديث صبره وشجاعته ، وجاءته وفود الآفاق تترامى حول أعتابه وأفاض النـاس فى علو منزلته وجـلال مكانته وقبوله عند ربه ، والامام حائر مضطرب يخلو الى نفسه فيتساءل ماذا يتحدث به القـوم ؟؟ وماذا يـكون موقفى أمام الله اذا كنت لديه أقل مما يظنون ...؟

ثم ماذا أصنع اذا عرضت الصحف يوم القيـامة ، فتطلع الناس ولم يروا مايزعمون !! ؟

أسئلة حائرة تختلج فى صـدره فاذا لم يجد لها جوابا يقنع ، صاح من أعماقه ليتنى كنت فى بعض الشعاب بمكة حتى لا أعرف !!! ثم يعصره الألم فيقول ... لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها ...

وتمضى الأيام ولا تزداد الوفود الا ازدحاما فالطريق الى بيتـه مزدحم غاص ورجال الدولة وأعيانها يتهافتـون على لقـائه فيرفض، والخليفة المتوكل يود ان يراه فيتمنع ويعرض عليه ان يكون أستاذا لولى العهد فيأبى ، وأحاديث محنته تذاع فتنقل حمده فى الخافقين وتجيئـه الوفـود من أقصى المشرق بخراسان ومن أقصى المغـرب

---

(١) ترجمة أحمد للذهبى ص ٢٥
(٢) ترجمة أحمد للذهبى ص ٦٨

بالاندلس وكل يلوذ به خاشع النفس منكسر الطرف .. وأحمد فى ذهول وألم ، فاذا حدثه محدث عن هتاف الناس بذكره ، قال فى تأوه نادم : أخشى أن يكون هذا استدراجا ، اذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس ....

وتأتيه أنباء عجيبة لو جاءت بعض ذوى الغرض فى الحياة والحظوة لدى الناس ، لأقامته وأقعدته ولكنه يتسمعها فى ألم ، ثم يقول ، وقد تغير وجهه : هذا استدراج .. هذا استدراج ...

أتاه رجل فحدثه انه كان أمام العدو بطرسوس .وقد جمعت الروم جموعها وتقدمت لغزو المسلمين فكان الجندى المسلم يأخذ رمحه ويرمى باسم احمد فيصيب أفجع مقتل ، وقد تحصن قائد الروم بدرعه وترسه وخوذته ، وعز على الرماة أن ينالوه فذكر أحدهم أحمد قبل ان يقذف فأصاب السهم من القائد مقتلا نافذا ... فصاحت الجموع بالدعاء لابن حنبل فى طرسوس !! أفتدرى ماذا صنع أحمد ؟ انه بكى وتغير وجهه وقال ليته لايكون استدراجا ...

وجاءه رجل فقال : لقد كانت أمى مقعدة ، فدعوت الله لها وتيمنت باسمك فذهب ما بها من مرض ، فقال احمد ، نحن أحوج الى ان تدعو أمك الله لنا ، فمن نحن ؟ !

لقد ضاق الرجل بالنباهة وعدها امتحانا رهيبا ، فكابد منها هما ناصبا وأخذ يعتزل الناس ، فما يمر فى طريق ، أو يجلس الى قوم وكم ود أن تدور به الارض فتقذف بمنزله فى فلاة موحشة منعزلة وهناك يأمن مديح الناس ويأخذ فى صلاته ونسكه دون مشغلة وارتياب !!

وذات يوم جاءه ان تلميذه الوفى (بقى بن مخلد) مريض يعانى سكرات الألم فى خان حقير بأطراف بغداد ، وتسمع الامام الخبر فأقلقه ، فتلميذه أندلسى غريب لا أم فتحنو ولا ولد فيرعى ، واذن فلابد من السعى اليه عملا بسنة رسول الله فى زيارة المريض ، فليخرج من عزلته قليلا الى دنيا الناس ليرى ويسمع ماهناك !!!

يا لجــلال أحمد !! يدعوه المتــوكل الى زيارته وقد أعد له الموكب الحافل وأقام الزينات الباهرة فيعتذر ويعتل ، ويظل قابعا فى كسر بيته فلا يريم ثم يعلم ان طالب علم من تلاميذه يتأوه فى مكان حقير بأطراف المدينة ، فيسعى الى عيادته راجلا متجشما ، على وهن فى الجسم وثقل فى الرأس ونفرة من لقاء الناس ....

وسار الامام فى الطريق ببغداد ، فلم يبق مصل فى مسجد ، ولا تاجر فى متجر ، ولا صانع فى معمــل الا ترك مافى يديه وسار فى الحشد الحاشد وراءه يتتبع خطاه الواهنة مبتهج النفس فرحا بالمسير خلف الامام ، ولم تبق عذراء فى خدر ، ولا سيدة فى منزل الا أطلت برأسها لتنظر هذا الموج المحتشد من الناس تتراكب لججه المزبدة ، لجة فوق لجة ... وأحمد فى مقدمته يسير فى تواضع وخشوع وقد خيل للناس أن ملكا من السماء قد هبط فجأة الى الارض ..... وتنقل فى ثراها متقمصا شخص أحمد ، فيالجــلال المنظر ويا لعظمة الامام ، وتسمع صاحب الخان الى الضجة القادمة من بعد فأطل بعينيه ليرى ، فوجد الطوفان يزحف نحو خانه المغمور ، فتساءل من يكون سيد الركب ؟ أهو حاكم كبــير فأين الحــراس والحجاب ومظــاهر الحكم ؟؟ أهم غرباء قد أتوا جميعا للاقامة ؟ فأين ذهبت خانات بغداد الفاخرة وفنادقها العظيمة ؟ ودنا الطوفان نعرف ان أحمد قــد ســعى ليزور مريضه العليل !!!

تقــدم الامام ووقف قليلا أمام تلميــذه ودعا الله ثم سار !!! ولا تسل عن شهرة الخان بعد ذلك فقد تزاحمت عليه الوفود فهــذا زائر يريد أن يجلس فى مكان وقف فيه الامام ، وهذا مقبل يود أن يسير فى موضع سار فيه الإمام ، وهذا محب يرغب ان يستعيد حديث الامام!! ونظر صاحب الفندق فاذا الربح الكثير والشهرة الزائعة،حتى اضطر أن يكتب لافتات يخط فيها ، هنا جلس احمد ، وهنــا وقف احمد ... وهنا تكلم أحمد !!! ولك بعد ذلك ان تقدر ماله الطائل وكنزه الحفيل ، أى ملك هذا ! وأى سلطان ؟. لو أن أمير المؤمنين

قد زار هذا الخان ماسمع به أحد ، ولكن امام أهل السنة قد أتاه فأصبح مهوى الأفئدة ومراد النفوس ..

أى شهرة طارت للرجل ؟ وأى حب تدفق فى نفوس العامة من الناس ...... ؟

وأى جاذب جذبهم الى التجمع حول داره فى ظلمات الليل وتحت وابل المطر، وعصف الريح ؟ ، ذلك مايؤرق أحمد ويضنيه !!! ويجعله فى كمد محرق وغيظ أليم ...

انه يخاف مقام ربه ، فى يوم تشخص فيه الابصار ويخشى ألا يكون كما يظنون ...

فكر الامام وقدر، ثم هداه تدبيره أن ينخرط فى العبادة ، صلاة وصياما وتلاوة ، وما زال على وهن القوة ، يقوم الليل يصوم النهار .... ثم يواصل فلا يفطر الا بعد ثلاثة أيام وهو بعد شيخ عليل معذب ممتحن فخارت قواه وتهالك جسمه وأصبح قاب قوسين من لقاء الله .... وتلك نهاية كل حى يعيش !!!

ففى أول ربيع أصيب بالحمى وقد صحبها ضيق فى التنفس ، وانتشر خبر ذلك فى بغداد فتجمهر الناس أمام بيته وفى الطرق المؤدية اليه ولم يستطع أحد الدخول أو الخروج من عنده بغير عناء مرهق لشدة مايلقى من الجهد والنصب حتى اضطر حاكم بغداد أن يقيم الحراس على باب الدار ، وأن يدفع الكتائب لتمنع التجمهر فى الطرق المنتهية اليه ، ولم يؤذن لغير الطبيب بعيادته ، وقد اهتم المتوكل بمرضه فكانت أنباء صحته تفد اليه ساعة بعد ساعة ، وقد حرص أحمد فى مرضه على ألا يؤخر الصلاة أو يرتفع صوته بأنين ، وحين ثاب اليه بعض رشده سأل عن كيس دراهمه فلم يجد به غير درهم واحد فأوصى ان يشترى به مع شىء من غلة داره تمرا ثم يوزع على الفقراء كفارة يمين يتوهم انها لم تقع موقعها الصحيح ، وجعل يتشدد فى السنة فيأتى بما كان يأتى به من الفعل وهو معافى صحيح،

وقد صاح صائح خارج المنزل ينـادى بسمه فاستدعاه فإذا شـيخ ينشج فى لوعة ويقول : لقد كنت ممن قام بتعذيبك فى عهد المعتصم وانى لأرجو المغفرة ، فاستغفر له احمد طالبا ألا يعـود الى مثـل ذلك قط ...

قال السبكى فى الطبقات[1] مرض أبو عبد الله ليلة الاربعـاء لليلتين خلتا من ربيع الاول وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليـه أفواجا يسلمون عليه ويرد عليهم وتسامع النـاس وكثروا وسـمع السلطان بكثرة الناس فوكل ببابه وبباب الزقاق ، الرابطة وأصحاب الاخبار ، ثم أغلق باب الزقاق فكان الناس فى الشوارع والمسـاجد حتى تعطل بعض الباعة وحيل بينهم وبين البيع والشراء ....

وقد جاء أميربغداد يطلب عيادة المريض فى ملأ من حراسه فرفض الامام اذ ان أمير المؤمنين نفسه قد علم رغبته فى عدم رؤيته فكيف بحاكم بغداد ....؟ لقـد كان الامام حتى آخـر ساعاته يكره لقـاء أصحاب السلطان وينأى عن كل مايمت اليهم بسبب كان .... اذ أنه يعلم فى اعتقاده أن ذوى الامر ظالمون غاصبون فالفرار الفرار ....

وحانت الساعة الرهيبة فجلل بغداد أسف كئيب وهرع النـاس الى المساجد والطـرقات واجمين ذاهلين ولم يبـد الموت عظيما فى نفوس الناس كما بدا يوم أحمد ، لقد كان للفناء معنى مؤثر قاهر !!! اذ عصف بطود أشم ، أصله ثابت ، وذروته فى السـماء وجاء أمير بغداد ليقوم بتجهيزه وتكفينه فحالت وصية الامام دون ذلك ، فهـو لايريد أن يسعى الى قبره مؤتزرا بلفائف الغاصبين ، ولم ير الحاكم بدا من الانصياع والاستسـلام ، حتى الصـلاة عليـه !!! لم يشأ بنو أحمد أن يقوم بها الحاكم نيابة عن أمير المؤمنين فغلبهم على ذلك وتقدم للصلاة وعلم الناس ، فأخذ كل بغدادى يصلى بنفسـه أمام القبر وجعلت طوائف الناس تفد أشهرا بعد أشهر للصلاة ...... وما انقطع ذلك الا بعد أمد طويل ..

---

(1) جـ ١ ص ٢٠٣

أما جنازة الرجل فحدث عنها ولا عجب ... فقد سار الطوفان اللجب يتدافع ويتراكب حتى غمر الارض وغص بالفضاء وقد قيل ان المتوكل أمر بأن يقاس المكان الذى وقف فيه الناس للصلاة على أحمد ، فبلغ مقاسه ألفي الف وخمسمائة الف !!!!!

وقد فتحت ابواب جميع المنازل ليتوضأ من يشاء فيصلى على احمد وظل النـاس فى تدافعهم وتزاحمهم لا ينقطعون حتى قال ابو الحسن اليمينى ..... « لقد مكثت أياما رجاء ان أصل الى القبر فلم أتمكن ـ للزحام ـ الا بعد اسبوع (١) » .

اننا نشهد بعض الدول تقيم المواكب لملوكها الراحلين وتأخذ فى اعداد العدة لذلك أياما وأسابيع ، فاذا انتقل الراحل الى قبره مضى كل شيء وتبدد كل جهد فى الاحتفاء والاحتفال .... ولكن جنازة أحمد لم تدع اليها دولة ولم يمض وقت فى تهيئة موكبها ورسم طريقها ، ومع ذلك فقد مكث أحد تلاميذه سبعة أيام حتى استطاع ان يصل الى القبر ..

فأى سلطان ذاك ؟

مات الرجل فودعته بغداد وانطلقت الألسنة فى الثنـاء عليه ، مسهبة مطيلة بعد ان كانت تختصر فى مديحه حرصاً على رضاه وطاعته لرغبته ، وقد اجتمع لداته من الفقهاء والعلماء يذكرون محامده ويلهجون بالثناء عليه فرويت عنهم أقوال زاخرة تموج بها كتب المناقب حتى لانعلم أحدا سبق له هـذا القدر الحافل من الثنـاء فى عصر أحمد سواه .

قال يحيى بن معين رضى الله عنه ... أراد الناس منا أن نكون مثل احمد بن حنبل لا والله مانقوى على مايقوى عليه احمد ولا على طريقة احمد ...

---

(١) المقريزى فى المقفى نقلا عن ابن حنبل والمحنة ص ٢٢٨

وقال الحجاج بن الشاعر ••• ما كنت أحب أن أقتل فى سـبيل الله ولم اصل على احمد ابن حنبل فوالله ما رأت عينـاى روحا فى جسد أفضل منه ••••••

وقال ابو داود •• كانت مجالس احمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر هذه الحياة •••

وقال بشر بن الحـارث ••• أتريدون منى ان أقف موقف ابن حنبل ! ؟ أتريدون منى ان أقوم مقام الانبياء !! ؟ لقد أحرق فى الكير فكان « ذهبة » حمراء ••

هذه أقوال مقدريه من العلماء ، أما التاريخ فقد قال فى احمـد كل طيب جميل فهو فى سجله الخالد امام عذب فصبر ••• ومحدث روى فصدق ، وفقيه غرس فأثمـر ، وزاهد عاف الحيـاة فدانت له الحياة •••

ثم جاءه اليقين فضجت عليه الارض وائتلقت به السماء رحمه الله •••



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦



١٥٧ ـ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤١٠١٢

العدد ٢٢ الثمن ١٥ قرشا